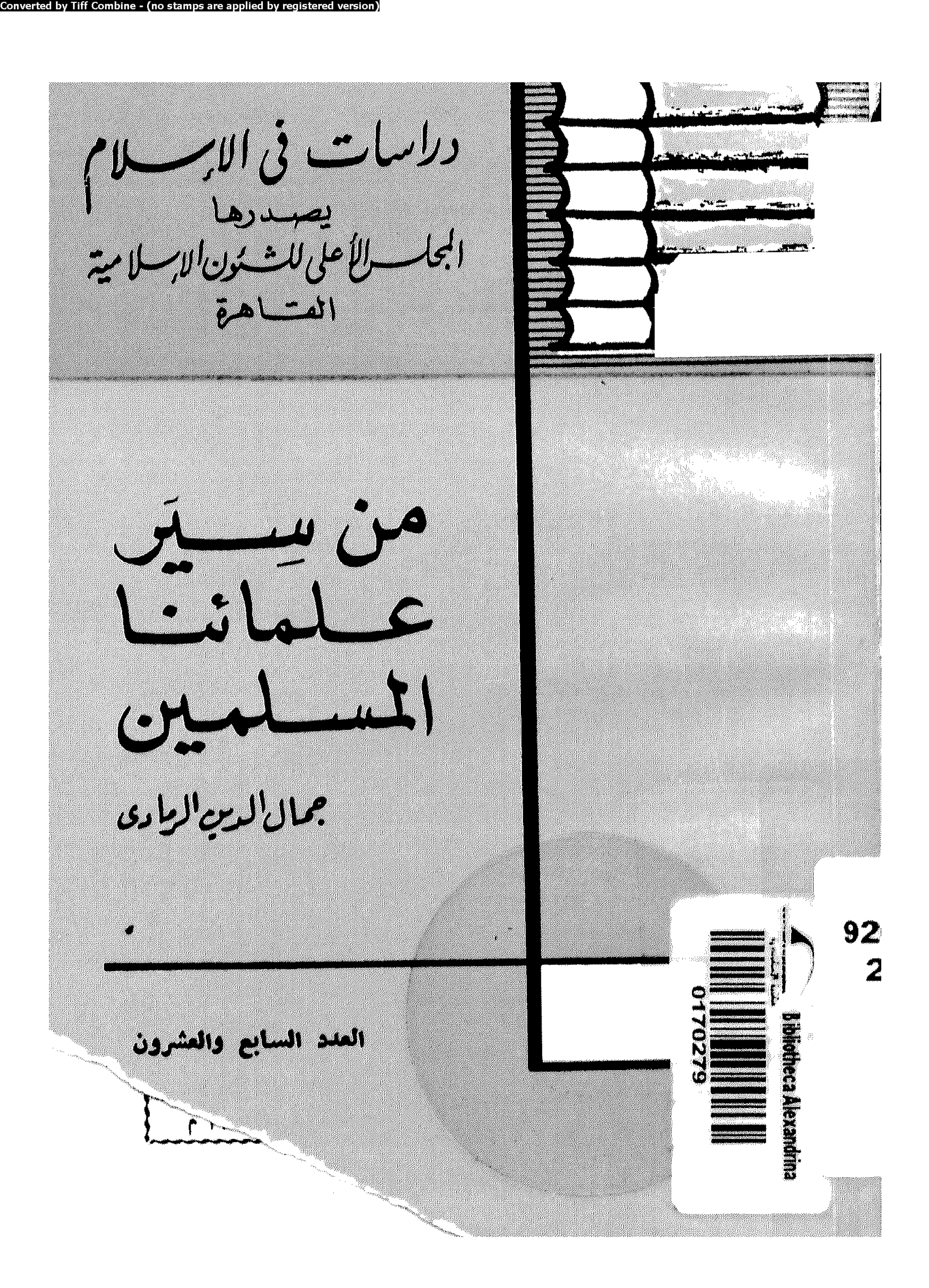


دراسات فى الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة
من سير
علمائنا
المسلمين
جمال الدين الرمادى
العدد السابع والعشرون


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

من سِيَر علمائنا المسلمين

جمال الدين الرمادي

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة






Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»

(سورة فاطر)

«أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ عِلْمًا ثُمَّ يُعَلِّمَهُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ» .

(حديث شريف)



مقدمة

هذا كتاب درسنا فيه سيرة بعض العلماء المسلمين الذين كان لهم القدح المعلى فى ميادين علوم التاريخ والاجتماع ودراسة احوال الطبيعة وظروف البيئة ، وقاموا برحلات طويلة فى شتى الاقطار والأمصار لاستكمال بحوثهم واستيفاء معارفهم ، وخرجوا على العالم بكتب قيمة فى العلوم الاجتماعية .

وكانت كتبهم بمثابة مراجع دسمة لشتى العلماء فى الشرق والغرب ، واشاد بذكرها عدد كبير من المستشرقين .

ورغم مرور الحقب وتتابع الأزمان ، فان ذكر هؤلاء العلماء لا يزال شذى فواحا وعبيرا مسكى الأنفاس فى التاريخ العربى .

وما أحوجنا ونحن فى وثبة عربية ناهضة أن نقلب صفحات التاريخ لنسترجع «امجاد» العرب فى مختلف المعارف الانسانية .



الفصل الأول

الإسلام والعلم

الاسلام يدعو الى العلم ، وهذه حقيقة واضحة لا تقبل الشك، ولا ترقى اليها الريبة ، فقد زخر كتاب الله العزيز بالدعوة الى المعرفة وطلب العلم فقال عز وجل فى كتابه العزيز : ((**وقل رب زدنى علما**)) كما قال جل ثناؤه : ((**ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**)) كما قال الرسول الكريم : ((**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**)) وجاء فى حديث آخر : ((**أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم**)) .

ودعا الرسول الى التردد على مجالس القرآن والعلم ، والأخذ عن العلماء والفقهاء ، ونشره واذاعته ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

((تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعلمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة))

وقد جاء القرآن الكريم متضمنا كثيرا من الأسرار العلمية ، والحقائق الطبيعية التى لو تأمل فيها القارىء أذهلته قدرة الخالق وعظمة كتابه المبين .

وصدق الله تعالى اذ يقول : ((**كتاب أنزلناه اليــك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب**)) .

وعن علي ــ كرم الله وجهه ــ قال : سمعت رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : ((ستكون فتن)) قلت فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : ((كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الاتقياء ، ولا يخلق على كثرة الترداد ، ولا تنقضى عجائبه ، ومن علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمــل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم)) .

فالقرآن الكريم يضم بين آياته حقائق علمية كبيرة توصل اليها العلماء بعد حقب طويلة من الأزمان ، وجهود مضنية من الابحاث ، ولكنها تمثلت بين آيات القرآن الكريم تفصح عن قدرة الخــلاق العظيم ، وتنطق بعظمة العلى القدير .

فالله عز وجل قال فى الخلق : ((**ثم جعلناه نطفة**)) كما قال أيضا : ((**خلق الانسان من علق**)) والنطفة هى الحيوان المنــوى الذى ينشأ فى خصية الرجل ويبلغ طوله نحــو الاثنين وثلاثين ((ميكرونا)) ((وحدة)) الى الاثنين والستين وهو مقسم الــى أربعة أقسام وهى : الرأس والعنق والجسم والذنب ، ولا يخرج الحيوان المنوى عن كونه خلية واحدة ، مركبة هــذا التركيب الخاص ، وهو كائن حى سريع الحركة اذ تبلغ سرعته نحو نصف ميللمتر فى الثانية الواحدة . أما ((العلق)) فى الآية الثانية فمعناها أن الحيوان المنوى علق بالبويضة واستمسك بها فعلقت المرأة اى حبلت ، فالانسان يخلق من اتحاد الحيوان المنوى مع بويضــة

والتراب هو الأصل فقال تعالى : ((**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة**)) .

وقال تعالى : ((**انا خلقناهم من طين لازب**)) .

وجسم الانسان كما اكتشفه العلماء المحدثون مكون من عناصر معدنية وغير معدنية وهى بعض محتويات القشرة الأرضية حسب التحاليل الدقيقة والابحاث الوافية .

ومن العناصر المشتركة بين جسم الانسان والقشرة الأرضية عناصر الأوكسجين ، والسليكون ، والالومنيوم ، والحديد ، والجير ، والصوديوم ، والبوتاسيوم الخ ..

وغير هذا فى القرآن كثير ، مما فتح الآفاق للعقل الى غاية مداه ، ووسع الاشواط للضمير الى منتهى اربه ..

فلا غرو اذن أن يتبع المسلمون نهج الدين الحنيف ، وينسجون على منوال نبيهم الكريم ، ويسيرون على هدى رسولهم العظيم ، فيسعون فى طلب العلم ، ولا يتوانون عن التحصيل ، وينفقون فى سبيل ذلك الجهد الكبير والمال الوفير ويضحون براحتهم وهنائهم فى سبيل العلم .

وقد ظهر من المسلمين علماء فطاحل ، بهروا التاريخ ، وبلغوا شأوا كبيرا من المعرفة إذهل العالم بأسره ، كما توصلوا الى حقائق علمية كانت دفينة فترة طويلة من الزمن .

وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا تسرف فى جهل مخيم ، وظلمة بهيمية ، كان العلماء العرب يبحثون وينقبون* وكانت آراؤهم نبراسا لامعا ، وسراجا وهاجا للناس .

وكانوا أشبه بالمنارات المتألقة فى عرض البحر الخضم لتهدى السارين بين اللجج والامواج وفى صخب الأذى الجبار ، والأنواء العاصفة ، والرياح الهوجاء .

ولم يركن العلماء المسلمون الى الهدوء والاستقرار بل ظلوا يبحثون عن الحقيقة ، وينقبون عن المعرفة ، وكان منهم رحالة طوفوا فى الآفاق ، واخذوا ينتقلون بين شتى الاقطار والامصار ، ويصفون الحياة فى المناطق النائية والاماكن البعيدة ، ويحللون مظاهر الحياة فيها ، ويتعرضون لأخلاق الناس وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ويصفون للناس ما شاهدته عيونهم من آثار خالدة ، أو أماكن للعبادة ، تعد تحفة فنية رائعة وصورة اسلامية رفيعة .

وقد توصل بعض العلماء الى وصف حياة الحيوان وتصوير طباعه تصويرا بهر علماء الأحياء وأذهلهم مما يدل على فرط ذكائهم وبراعتهم المتناهية .

وان الباحث فى التاريخ الاسلامى يلاحظ بوضوح مدى تأثر الغرب بالعلوم العربية سواء فى اللغة أم الأدب أم الكيمياء والطبيعة والفلك ، وما الى ذلك من علوم .

العربية مفتاح اللغات :

وقد كانت اللغة العربية ــ لغة القرآن ــ هى الطاقة التى وسعت مباحث العلماء المسلمين فى مختلف العلوم ... وكان طبيعيا ان تنتقل هذه العلوم بلسانها العربى مع حركة الفتح الى الامصار المفتوحة ، فكان تأثير اللغة العربية واضحا جليا فى بلدان الغرب والشرق ... وان مراجعة يسيرة للغات المختلفة لتريك « سيلا » من الفاظ العرب فى هذه اللغات .. وبخاصة الالفاظ العلمية والحضارية سنذكر قليلا منها خلال هذا البحث .

وهكذا كانت اللغة العربية معينا خصبا ومنبعا متدفقا فى اللغة ، وكيف كانت الأمم المنطوية تحت لواء الاسلام تستخدم

الفاظ العربية فى لغتها وتستفيد من مظاهر الحضارة العربيـــة ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

وعندما وصلت الحضارة العربيـــة الى اسبانيا كان الأدب العربى مصدرا من مصادر التأثير فى الآداب الاوربية .

ولعل أوضح دليل على مدى تأثر الثقافة الغربية بالأدب العربى هو ما ظهـــر فى شعر التروبادور « غرسيه فرنندث » كما ظهر فى تروبادور بروفنسه الذين تأثروا بالموشحات والأزجال الاندلسية سواء من حيث الصورة الشعرية ، أم من حيث المعانى المطروقة .

ومن مقارنة بعض مقطوعات التروبادور « غرسيه فرنندث » بنظائرها فى الشعر العربى يتبين مدى تأثره بالعناصر الشعرية فى البيئة الاسلامية .

العلوم الرياضية :

اما فى ميدان العلوم فقد وصل العرب الى شأو عظيـــم من التقدم بل لقد برع بعض المسلمين فى ميدان الرياضـــة وهو من الميادين الجديدة التى خاض فيها العلم الحديث .

ومن اشهر العلماء المسلمين ابو العباس الفضل بن حـــاتم النيريزى ، ويقول عنه القفطى فى كتاب « اخبار العلماء بأخبـــار الحكماء » « وكان الفضل متقدما فى علم الهندسة ، وهيئـــة الافلاك ، وحركات النجوم ، وله تآليف مشهورة » .

واشتغل أبو العباس بالرصد ، ويقال أن الأرصاد التى أجراها قد راجعها بتدقيق ابن يونس الشهير الذى اتى بعده بقرن واحد .

وقال بمهارة النيريزى الفائقة فى الرصد ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب الأربعة لبطليموس ، وكتاب أحداث الجو ، وقد الفـــه للمتعضد ، وكتاب البراهين ، وتهيئة آلات يتبين فيها ابعاد الاشياء

وكتاب سمت القبلة ، وكتاب شرح فيه المجسطى وآخر فى شرح كتاب اقليدس ، وهذا الاخير هو ترجمة جيرارد اوف ريمونا وكتاب الزيج الكبير ، والزيج الصغير .

كما برع من العلماء المسلمين فى الرياضيات كذلك أبو محمد خان بن الخضر الخجندى مؤلف كتاب « المبادىء والغايات فى علم الميقات » .

أما الخوارزمى (٧٨٠ـ٨٥٠ م) فانه تناول مبادىء علم الجبر التى وضعها ديوفانتس اليونانى فى الاسكندرية حوالى القرن الثالث أو الرابع الميلادي ، وهذبها وأضاف اليها اضافات كثيرة ، كما كتب فى الارقام الهندية ، والف تقاويم فلكية وصاغ أقدم جداول لحساب المثلثات .

أما (ثابت بن قرة) فيعتبر كتابه فى « المزولة » من أبرع الكتب فى الساعة الشمسية وتحديد ارتفاع الشمس ، وطول السنة الشمسية .

وكان أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى من أعلام المسلمين فى الفلسفة والتاريخ والفلك والرياضة ، وكان كتابه «الآثار الباقية» من أمتع الكتب فى هذه الميادين .

أما ابو على الحسن بن الهيثم البصرى فقد برع براعة فائقة وأظهر مهارة منقطعة النظير فى ميدان « البصريات » .

وقد بحث فى انتشار الضوء والالوان والخداعات البصرية والانعكاس البصرى ، وسجل تجارب شتى فى هذه الظواهر الطبيعية .

التاريخ الطبيعى :

وفى التاريخ الطبيعى اشتهر من المسلمين الدميرى والقزوينى ، وكان الجاحظ صاحب فراسة دقيقة وعلم واسع فى التاريخ الطبيعى .

ويعتبر كتاب « الحيوان » من امتع الكتب فى هذا الميدان ، اذ استطاع الجاحظ أن يغوص الى الاعماق فى تصــوير أحوال الحيوانات المختلفة .

وتكلم عن الأسد والنمر والفيــــل كما تكلم عن الدواجن ، والديكة وعلل صياحها وصور حركات الحمام بين الأعشــاش ، وأسباب الهجرة عند الحيوان .

وقد تمثلت فى كتابه مقدرته الواسعة فى التحليل والتفســير العلمى .

كما كان الأصمعى الفقيه اللغوى أحد مشاهير العرب الذين كتبوا عن الحصان والجمل والحيوانات المفترســة والحيوانات المستأنسة .

وفى علم الجغرافيا كان الادريسى من أبرع علماء المســلمين فى وصف البلدان ، ويعتبر كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » من أدق الوثائق فى هذا الباب .

وقد رحل الى صقلية وظفر باعجاب ملكها وصنع له كــرة أرضية طار صيتها فى الآفاق وكانت دليلا على براعتـــه فى رسم الخرائط .

التاريخ والجغرافيا :

وفى التاريخ سطع نجم الطبرى وأبو حنيفة الدينورى وابن قتيبة واليعقوبى فى القرن الثالث كما سطع نجم ابن مســكويه والصولى فى القرن الرابع ، ثم ظهر بعد ذلك الخطيب البغدادى وابن عساكر وابن الجوزى وابن خلدون ، والمقريزى ، وابن اياس.

وفى القرن الثانى من الهجرة ظهر ابن اسحق والمدائنى وهشام الكلبى والواقدى وغيرهم .

وكون الجميع سلسلة من الكتب التاريخية التى غطت تاريخ الاسلام حتى عصوره المتأخرة .

ومن اشهر علماء العرب ومؤرخيهم محمد بن جرير أبى جعفر الطبرى صاحب التفسير الكبير للقرآن الكريم وتاريخ الرسل والملوك أو التاريخ العام الذى وصل به الى عام ٢٩٨ هـ .

وكان الطبرى طواف آفاق . طاف فى كثير من الاقطار والامصار لتحصيل العلوم والمعارف الانسانية ، وكان متمسكا بالسنن وكفر الخوارج والروافض ولم يستطع قبول أدلتهم ، وتمسك بأن لا وراثة بين أفراد المذاهب المختلفة فى الدين الواحد

ويقال ان الطبرى قال « حفظت القرآن ولى سبع سنوات وصليت بالناس وانا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وانا ابن تسع سنين ، ورأى لى ابى فى النوم أننى بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان معى نحلاة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر : انه ان كبر نصح فى دينه ، وذب عن شريعته ، فحرص أبى على معونتى على طلب العلم وانا حينئذ صبى صغير .

واشتهر البلاذرى بكتابيه فتوح البلدان ، وانساب الاشراف، ويعالج الكتاب الأول تفاصيل تاريخ البلاد المفتوحة ، وتاريخ علمائها ، والأفكار السائدة فيها ، ووسيلة المسلمين الى الفتح . أما الكتاب الثانى فيعالج أحداثا خاصة وروايات معينة .

اما ابن قتيبة فمن كتبه « المعارف » وهو موجز من المعلومات التاريخية عن العصور الاسلامية والحقائق المتصلة بشخصية الرسول ، وجداول الانساب ، وأسماء الفرق وما الى ذلك .

ويعد كتابه « الامامة والسياسة » تاريخا للدولة الاسلامية منذ وفاة الرسول الكريم حتى وفاة الخليفة هارون الرشيد .

أما ابن مسكويه فكان وثيق الصلة برواة الاخبار ، بل انه عاش بعض الحوادث التى ذكرها فى كتبه ، ومن هنا كان الصدق يشيع فى كتابته .

وكان فضلا عن ذلك عارفا بمناهج الادارة والحروب فى عصره فسهل له ذلك مهمة الكتابة فى التاريخ ووصف المعارك والحروب .

واشتهر الخطيب البغدادى بكتابه تاريخ بغداد ، ويقال ان مصدر معارف الخطيب البغدادى مكتبة جمعها من يسمى غيث بن على الصورى خلف بعد موته عند اخته اثنى عشر عدلا محزوما من الكتب .

فلما خرج الخطيب الى الشام حصل من كتبه ما صنف منها كتبه وقدرها ٥٥ كتابا .

ويعد كتاب « تاريخ دمشق » من أمتع الكتب التاريخية التى أخرجها المؤرخون المسلمون وهو من تأليف ابن عساكر على بن الحسن ٤٩٩ — ٥٧١ هـ .

وقد كان كثير التنقل بين الحجاز وأصفهان ومرو وهراه والكوفة مما ظهر أثره واضحا فى كتابه .

وروى أن من شيوخه ١٣٠٠ رجل ونيفا وثمانين امرأة .

أما المقريزى فقد اهتم بالعصرين الايوبى والمملوكى ، وتعتبر الخطط التى كتبها المقريزى من أروع الكتب فى علم الطبوغرافيا .

وحذا حذوها المربى الكبير على مبارك فى الخطط التوفيقية .

اما كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس فقد كتبه على نظام الحوليات ، وارخ فيه كثيرا من الحوادث التاريخية الهامة كما صور الشخصيات التى ملأت هذه الحقب من التاريخ بأعمالها وآثارها .

وعلى الرغم من أنه الف الجزء الأخير من كتابه فى ظلال الدولة العثمانية فانه لم يكن يتحرج من وصف الحقائق مجـردة دون تزويق ودون تنميق ودون محاورة أو مواربة ، ودون أن يدافع عن وجهة نظر الاتراك .

العلوم الكيماوية :

وفى ميدان الكيمياء برع المسلمون براعة عظيمة ، ووصـفوا العقاقير وصفا دقيقا ، وقد تقدمت الكيمياء تقدما عظيما على يد جابر بن حيان .

وقام جابر بتجارب عدة فى عمليـات الترشيح والترسيب والتقطير والانصهار .

وكان جابر يعرف طرق تحضير أنواع القلويات وملح النوشادر، ونترات الصودا ، ونترات البوتاسيوم .

وقد استطاع جابر بن حيان بفضل تعمقه فى دراسـة خلائط المعادن أن يجرى سلسلة من التجارب أدت الى وضـع سلسلة أخرى من المبادىء العلمية المتينة على أسس صحيحة وقوية من التجربة والاختبار والدراسات الكيماوية التجريبية .

واستطاع جابر لأول مرة فى التـاريخ أن يستحضر حمض الكبريت وحمض النيتريك كما أنه طور نظريات التبخر، والذوبان والتبلور والتحويل من الحالة الجامدة الى البخار Sublimation

وأتاح هذا التطور فى العلوم الصيدلية المبنى على أسس علمية صحيحة للاطباء العرب ان يجدوا بين أيديهم موادا للتعقيم مونوقة وان يباشروا العلاجات السريرية بشكل صحيح .

وانتشرت على اثر ذلك الصيدليات فى شتى انحـاء العـالم العربى بين بغداد وقرطبة .

وكان العرب أول من ابتكر الأنابيب والأوعية الصيدلانية وكانت أوانى جميلة من السيراميك ذات الوان مشرقة .

وعندما اراد الخليفة هارون الرشيد أن يقدم لشارلمان نماذج من الصناعة العربية تعطى فكرة صادقة عن تطور العالم العربى اهدى اليه مجموعة من هذه الأوانى الصيدلية الفاخرة .

وانتشرت مع الصيدليات المستشفيات ، وفى بغداد وحدها وجدت ستون مستشفى حوالى عام ١١٦٠ .

وفى القاهرة اشتهر مستشفى « منصور » حيث اتبعت طريقة حديثة فى فصل عرق النساء عن الرجال .

وفى بعض المستشفيات استعيض لأول مرة بالكاوى Cautrisation عن المشرط فكان هذا تطورا فى الطب العربى .

وكانت التعبيرات العربية تتغلغل فى علوم الكيمياء والصيدلة والطب مما يشهد بفضل العرب على الحضارة الغربية .

الطب عند المسلمين :

وقد حدد أطباء المسلمين أعراض الأمراض ، ولابن أسحق مؤلفات كثيرة فى هذا المضمار ، وترجم مؤلفات جالينوس فى الطب وجعل شهرته تصل الى علماء الشرق والغرب .

واشتهر « الرازى » بين أطباء المسلمين ويعتبر كتابه «الحاوى» موسوعة طبية كبيرة .

وعرف الرازى بدراسته عن الزئبق ونظرياته الطبية الكثيرة والتى طبقت فى أوربا فى العصر الاليزابثى وخلاله .

وقد امكن بفضل بحوث الرازى التفريق العلاجى بين جدرى الماء Variole والحصبة الحميرة Rougeole وما ورد فى كتبه

من أوصاف الطفح الجلدى والأعراض والالتهابات يدل على علو كعبه فى المعارف السريرية العميقة .

وترجم كتاب الرازى المعروف بكتاب « الأسرار » فى القرن الثانى عشر الميلادى وقام بترجمته جيرار كريمونه فكان لروجيه باكون مرجعا رئيسيا فى بحوثه التجريبية فى الطب .

وكان الرازى أول من أعطى علاجات مختصة بالالتهابات العصبية النفسية كما انه اهتم بالعلاجات التى تفيد فى حالات الصداع .

ومن هذه العلاجات نجد الكى والدهن بزيت الورد او زيت السانتال .

وقد خصص الرازى فى كتبه فصولا للتحدث عن الجراحة ، واشار الى استعمال اوتار القيثاره فى رتق الجراح .

ويقدم الرازى عرضا جيدا للبتر والفتق ولا يعتبرهما انفصالا Rupture ولكنه يصفهما بانهما يحدثان كنتيجة لتمدد فى المجرى المؤدى من التجويف البطنى والخصيتين .

اما (ابن سينا) فقد اشتهر كأحد كبار الفلاسفة بيد انه كان خبيرا بالطب والصيدلة وكان خبيرا بالموسيقى كذلك .

وأقام ابن سينا مبدأ انتقال المرض عن طريق العدوى .

وأشهر مؤلفات ابن سينا كتاب « القانون فى الطب » وهو موسوعة طبية كبيرة ومرجع علمى نفيس .

وكان لهذا الكتاب اثر بالغ على الاطباء حتى القرن السادس عشر الميلادى وبلغ من شهرة مؤلفاته الطبية ان العالم (باراسيلز) عند رجوعه من مدينة « بال » بسويسرة عمد الى احراق مؤلفات غاليان وابن سينا كرمز لتحريره الطب من استرقاق هذين العالمين . . .

وسار العلماء فترة طويلة من الزمن على هدى نظريات ابن سينا المتعلقة بالطب العصبى النفسى .

وكتب ابن سينا فى خزع الاوردة واستئصالها ، واستعمال الأربطة للدوالى مشيدا بالطرق الجراحية موضحا اياها بالرسوم.

واشتهر فى الأندلس « ابن زهر » وكتابه التيسير اعتمد فيه على تجاربه الطبية الخاصة ، وشاع استخدام مؤلفاته فى الطب.

أما ابن رشد فكان له نصيب مشكور فى الطب وتعد موسوعته « الكليات » من أخصب الكتب فى الطب .

وفيها قرر ابن رشد الحقيقة التى تنص على أن الشخص لا يعدى مرتين من الجدرى كما أوضح فيها وظيفة الشبكية .

ولكن ابن رشد الطبيب قد غطى عليه تماما ابن رشد الفيلسوف والشارح .

واشتهر أيضا من الأطباء المسلمين « الزهراوى » ويعتبر أول عالم تعرض لوصف وعلاج كسور الحوض وصفا مفصلا .

كما يعتبر الزهراوى أول طبيب ـ على ما يبدو ـ قال بامكان الدخول الى مجرى السمع الخارجى عن طريق جراحة تجرى فى أسفل الأذن .

وعمم الزهراوى على طلابه وصية حكيمة فحواها « حذار من اجراء اية جراحة قبل أن تتأكد من الموقع الدقيق للمجارى الدموية والأعصاب والأوتار » .

وقد تعرض الزهراوى فى كتبه الى أمراض البرص وذكر أنه أربع أنواع وتعرض الى دراسة مفصلة عن مراحل المرض وعرض مسهب لاسبابه وعلله .

وترجم بعض فصول كتابه المسمى « التصريف لمن عجز عن التاليف » الى اللغة اللاتينية .

ولخص الزهراوى فى الجزءالاخير من كتابه المعلومات الجراحية فى عصره واهتم بتوضيح الآراء الجديدة مثل كى الجروح وتفتيت الحصوة فى داخل المثانة وأهمية التشريح والفحص الدقيق .

وترجم جيرار الكريمونى Gerard of Cremona الجزء المتعلق بالجراحة الى اللاتينية ونشرت طبعات مختلفة منه فى البندقية عام ١٤٩٧ وبال Basel ١٥٤١ واكسفورد ١٧٧٨ .

وظل الكتاب محتفظا بمكانته عدة قرون كمرجع مدرسى فى الجراحة فى كل مدارس سالرنو ومونيليه .

وفى الزراعة اشتهر من المسلمين ابن العوام ويعتبر كتابه الفلاحة من أمتع الكتب فى هذا الميدان .

وقد أوضح فى هذا الكتاب أحوال الزراعة فى العصور الوسطى .

علم النبات عند المسلمين :

وفى علم النبات برع ابن البيطار وله كتابان شهيران هما « المغنى فى الأدوية المفردة » و « الجامع فى الادوية المفردة » وهو

عبارة عن مجموعة من الادوية البسيطة المأخوذة من عوالم الحيوان والنبات والمعادن .

وكتب ابن البيطار أوصافها باليونانية والعربية واضاف اليها ما أجراه شخصيا من التجارب والبحوث .

وهذا الكتاب الأخير يعتبر أقدم مؤلف من نوعه فى العصور الوسطى .

وذكر فيه ابن البيطار ما يقرب من ١٤٠٠ مادة كان من بينها نحو ٣٠٠ من مبتكراته الجديدة . .

ومن بين هذه الثلاثمائة نحو مائتين من النبات .

أما المؤلفون الذين نقل عنهم ابن البيطار فتبلغ عدتهم نحو ١٥٠ كان من بينهم ٢٠ أغريقيا .

وطبعت أجزاء من ترجمة كتاب ابن البيطار باللاتينية تحت عنوان « الادوية البسيطة » Simplicia أواخر عام ١٧٥٨ م فى مدينة كريمونا .

الفاظ أوروبية ذات اصل عربى :

ووجدت فى اللغات الأوربية بعض الكلمات ذات الأصول العربية مما يدل على أثر العرب فى الحضارة العربية .

ومن هذه الكلمات على سبيل المثال :

الكيميـــــاء	Alchemy
القطـــــران	Alchitran
الكحـــــول	Alcohol
الأنبيـــــق	Alembic
عطـــــر	Attar
نفـــــط	Naphtha
زعفـــــران	Saffron
الأكســـــير	Elixir
زرنيـــــخ	Arsenic
نطـــــرون	Natron
تباشـــــير	Tabasheer
طرطـــــير	Tartar
القـــــلوى	Alkali
الشـــــراب	Syrup
الصـــــداع	Soda

غير ذلك من الكلمات التى تقتصر على علوم الكيمياء والطبيعة والطب اى تغلغلت فى التجارة والفلك مثل :

الـــــذنب	Denab
الفــــرقد	Pherkad
الجـــــدى	Alegdi
العقـــــرب	Acrab
امــــيرال	Admiral
ترســـــانة	Arsenal
تعـــــريفة	Tarif

وغير ذلك من الكلمات :

العلوم الشرطية عند المسلمين :

واشهر العرب فى العلوم الشرطية والعسكرية ، والطريف أن العرب توصلوا الى وظائف الشرطة ، وكان عثمان بن عفان اول من اتخذ صاحب شرطته عبد الله بن منقذ .

وتبع الخلفاء عثمان فكان على شرطة على معقـــل بن قيس الرياحى ، ومالك بن حبيب اليربوعى وعلى شرطة معاوية يزيد بن حارث العابى .

ويصح أن يكون منصب صاحب الشرطة موجودا فى عصـــر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وذلك لانه صلى الله عليه وسلم كان يسند اقامة الحدود بين يديه لعلى بن ابى طالب والمقداد بن الأسود .

ووضح العلامة ابن خلدون دور الشرطة فى الدولة الاسلامية فكتب يقول : « أصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم احكـــام

الجرائم فى حال استبدائها أولا ثم الحدود بعد استيفائها ، فان التهم التى تعرض فى الجرائم لا نظر للشرع الا فى استيفاء حدودها وللسياسة النظر فى استيفاء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم اذا اختفت به القرائن لما توجبه المصلحة العامة فى ذلك ، فكان الذى يقوم بهذا الاستبداد ، وباستيفاء الحدود بعده اذا تنزه عنه القاضى ، ويسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا اليه النظر فى الحدود والدماء باطلاق وافردوها عن نظر القاضى ، ونزهوه هذه المرتبة ، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ، ولم تكن عامة التنفيذ فى طبقات الناس انما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب والضرب على أيدى الرعاع والفجرة » .

وفى عيون الاخبار عن الشعبى قال قال الحجاج : دلونى على رجل للشرطة فقيل أى الرجال تريد ؟ فقال أريده دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، اعجف الخيانة . لا يحنق فى الحق على جرة ، يهون سبال الاشراف فى الشفاعة عليه .

ولما وجه ابن هبيرة مسلم بن سعيد الى خراسان قال : أوصيك بثلاثة : حاجبك فانه وجهك الذى به تلقى الناس . ان احسن فأنت المحسن ، وان أساء فأنت المسىء ، وصاحب شرطتك فانه سوطك وسيفك فأنت وضعتهما حيث وضعهما .

وهكذا نبغ العرب فى العلوم الشرطية ،ولو اننا تأملنا فى نظام الامن العام فى العصر الحديث اوجدناه لا ينكر نظام العرب بل انه يستمد منه بعض أصوله الأولى فى صورة واضحة .

العلوم العسكرية عند المسلمين :

وفى العلوم العسكرية بلغ المسلمون شأوا عظيما وآمن المسلمون بالمثل القديم القائل « الشجاعة صبر ساعة » .

فبهذا السلاح الذى يدعو اليه قواد الاستراتيجية العالمية يقهر الجيش من هم أكثر منه عددا وأجزل عددا وأوفى مددا .

ولقد تكررت كلمة الصبر ومشتقاتها فى القرآن الكريم بصورة واضحة بينة من صبر ، يصبر ، اصبر ، الصابرون الخ .. مائة مرة ومرة تدور فى أربع وأربعين سورة .

وحسب الصبر فضيلة اذ يقول الله تعالى فيه : « وبشر الصابرين » سورة البقرة ١٥٥ .

ويقول تعالى : « والله يحب الصابرين » آل عمران ١٤٦ .

ويقول تعالى : « والله مع الصابرين » البقرة ٢٤٩ .

ويقول تعالى : « ان الله مع الصابرين » البقرة ١٥٣ ، الانفال ٤٣ .

ويقول الله تعالى كذلك فى قوة الصبر وبأس الصابرين مع المقاتلين :

« يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » الانفال ٦٥ .

وقال تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » آل عمران ٢٠٠ .

وقد كان القرآن الكريم مصدرا من مصادر العلوم العسكرية التى نبغ فيها العرب واستمد منها المسلمون خططهم فى ملاقاة أعدائهم .

ودعا الله سبحانه وتعالى المسلمين الى الاستعداد لملاقاة أعدائهم وتجهيز طاقاتهم للهجوم على الخصوم فقال عز وجل :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوا الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » الانفال

وقال عز وجل :

« كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » البقرة .

وقال تعالى : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » التحريم .

وقال تعالى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » سورة محمد .

وقال تعالى : « فاما تثقفنهم فى الحرب ، فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين » الانفال .

وقال تعالى : « واطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » الانفال .

فمن هذه الآيات البينات استطاع العلماء المسلمون أن يضعوا قواعد الاستراتيجية العربية الموفقة .

وكان لها أثرها الواضح فى المعارك الكبرى التى خاضها المسلمون مثل معركة بدر والخندق وفتح مكة والقادسية واليرموك وبيت المقدس وغيرها من المعارك الحربية .

وقد كان الرسول الكريم قائدا مغوارا ، ومثالا رفيعا فى الشجاعة والاقدام ، رسم الخطط الحربية لأصحابه ، فكفل لهم النصر المبين ، والفوز العظيم .

وروى الامام البخارى بسنده ان رجلا سأل البراء بن عازب رضى الله عنه : أفررتم يوم حنين عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ؟ ــ قال : نعم ، لكن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يفر .

قيل فما رؤى يومئذ احد اشد منه الى أن قال : فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يركض بغلته نحو الكفار .

وعن على ــ رضى الله عنه ــ قال : « انا كنا اذا حمى البأس ، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فما يكون أحد اقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو اقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا ، وقيل : كان الشجاع هو الذى يقرب منه ــ صلى الله عليه وسلم ــ اذا دنا العدو لقربه منه .

ودعا الرسول الكريم الى الصبر على الشدائد والجهاد فقال ــ صلى الله غليه وسلم ــ (**الجنة تحت ظلال السيوف**)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا (**والذى نفسى بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا يطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا اجد مااحملهم عليه ، ماتخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده لوددت أن أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل**) .

فأى شجاعة أروع من هذه الشجاعة وأى اقدام اوقع من هذا الأقدام .

لقد كان القرآن الكريم والحديث الشريف مصدرين خصبين من مصادر العلوم العسكرية وتلقين دروس البطولة والشجاعة والاقدام .

ولذلك نبغ من المسلمين ابطال مجاهدون منهم سيف الله المسلول خالد بن الوليد ، وسعد بن أبى وقاص — وعمرو بن العاص وطارق بن زياد ، وعقبة بن نافع ، وأسد بن الفرات وغيرهم من أبطال المعارك وكماة الفتوحات .

وكان هؤلاء القادة خبراء فى خططهم العربية ، علماء فى الفن الحربى بأوسع معانى هذه الكلمة وأدق مدلولات هذا اللفظ .

وكان جيش المسلمين مقسما الى مقدمة ، وساقه ، ومؤخرة وجناحين ، وكانت الخطط الحربية توضع قبل الهجوم أو الدفاع، اذ لم تكن الحرب تسير اعتباطا أو ارتجالا انما كانت تتبع خطة حكيمة وفكرة رشيدة من القائد العام .

وكان المسلمون يحرصون كل الحرص على اختيار القائد العام، فكان خبيرا لشئون الحرب ، واسع المعارف ، عظيم الأدراك ، قوى الشكيمة ، مسموع الكلمة ، موفور المهابة . محيطا بنفسية الجنود ، ملما بطبيعة الأرض وأحوال البلاد .

التجارة عند المسلمين :

وفى ميدان التجارة وصل العرب الى المحيطين الهندى والهادى والى أوربا وجنوب افريقيا .

وكانت التجارة مهمة بالنسبة الى العالم الاسلامى ، وتوغل التجار المسلمون فى شتى القارات ، وفكر خليفة عربى هو هارون الرشيد فى حفر قناة تخترق برزخ السويس ، قبل أن يفكر فى ذلك دى لسبس بألف سنة .

ونشطت التجارة كذلك بين المسلمين والشعوب التى تقطن منطقة نهر الفولجا فى روسيا .

أما بحر الخزر فانه بسبب قربه من المراكز الفارسية الهامة والمدن الناهضة كسمرقند وبخارى وما يتصل بها فانه كان مسرحا لحركات تجارية نشيطة .

وبلغ متوسط الدخل السنوى لبعض تجار البصرة الذين كانت سفنهم تحمل المتاجر الى أقصى بقاع العالم أكثر من مليون دزهم.

وكان أحد التجار فى البصرة يوزع صدقه قدرها مائة الف دينار فى اليوم .

وقد عينه الخليفة المعتصم وزيرا له فى فترة من الفترات

وقد ساعد الاسلام على نمو التجارة بماوضعه من قواعد سليمة فى المعاملات فضلا عن الوفاء بالعهود واداء الأمانات الى اهلها كانت خير ضمان للمتعاملين فى نطاق التجارة من الاطمئنان الى حقوقهم المتبادلة .

وكانت الثقة بين الطرفين عاملا هاما من عوامل الرواج التجارى وهذه الثقة يعبر عنها الاقتصاديون المعاصرون بكلمة الأئتمان بمعنى أن الثقة تفترض الأمانة أو الاطمئنان أو الارتكان الى ذمة شخص ، وتنعكس فى قبول شخص منح الآخر أجلا للوفاء بدين

المعاملات التجارية في القرآن الكريم :

وقد جاءت فى القرآن الكريم آيات بينات مبينة احكام المعاملات الدنيوية

ومنها هذه الآية الكريمة ((**يايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولايأب كاتب ان يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولايبخس منه شيئا ، فان كان الذى**

عليه الحق سفيها أو ضعيفا ، أولايستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين ، فرجل وامرأتان ممن ترضـــون من الشهداء أن تضـــل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء اذامادعوا ، ولاتسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم اقسط عند الله وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها ، واشهــدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم » .

وهكذا كان القرآن الكريم دستورا للمعاملات بين التجار بل بين الناس جميعا .

فان مقتضيات التجارة قد تفرض على التاجر قبول التعــامل بأجل ، أى منح زملائه من التجار آجالا للوفاء كما يحصل هو بدوره على آجال من التجار الذين يتعامل معهم .

فخصت هذه الآية الكريمة بالحث على كتابة (الديون الآجلة) وتركت بعد ذلك الباب مفتوحا .

ودعا القرآن الى التعاون بين الناس فقال عزو جل (**وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان**)

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أحب الى الله فقال « انفع الناس للناس »

كما قال الرسول الكريم : « **ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء** » .

ونادى الاسلام بمبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات وهو من المبادىء الأساسية التى اقرتها الوثائق الدولية لحقوق الانسان



وبنغ طائفة من تلاميذ اولئك الأئمة وأصحابهم مثل القاضى أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيبانى ، وعبد الرحمن بن القاسم وغيرهم ٠

وفى العصر العباسى الثانى نضج علم الحديث الذى اشتغل به جماعة كبيرة فى أنحاء البلدان الاسلامية أكثرهم فى المدينة ومصر والكوفة والبصرة فى العصر العباسى الأول نذكر منهم ابن جريج ت ١٤٩ هـ (بغداد) والأوزاعى ١٥٧ هـ (بيروت) وابن عياش ١٩٣ هـ (الكوفة) وابن نافع الصنعائى ٢١١ (فى اليمن) وعبدالله ابن عبد الحكم ت ٢١٤ هـ فى مصر ويحيى بن معين الحافظ ت ٢٣٣ هـ (فى المدينة)

نضج فى العصر العباسى الثانى علم الحديث ووضعت الكتب الستة المشهورة فى الحديث وأصحابها البخارى (ت ٢٦٥ هـ) ، وكان قد رحل لسماع الحديث الى شتى الأمصار والمدن وشهدله معاصروه لعلم الرواية والدراية وهو صاحب كتاب (جامع الصحيح) المشهور بصحيح البخارى ٠

ومسلم القشيرى وتوفى سنة ٢٦١ هـ والف كتابا سماه الجامع الصحيح وقد طبع فى الهند عام ١٢٦٥ وفى مصر فى تسعة اجزاء ٠

وابن ماجه (توفى سنة ٢٧٣) وهو صاحب كتاب « السنن » وقد ارتحل فى طلب العلم الى البصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر ٠

وأبو داود توفى عام (٢٧٥) وقد الف كتابا اطلق عليه (السنن) وتعرف بسنن الامام ابى داود ٠

والترمذى توفى عام ٢٧٩ هـ وله كتاب الجامع الصحيح

والنسائى توفى سنة ٣٠٣ هـ وهو صاحب كتاب السنن المعروف باسمه ٠

أما فى التفسير فقد ظهر عند المسلمين علمـــاء بارزون نذكر منهم الطبرى صاحب التفسير الكبير ٠

الطبرى وتفسيره :

وقد كان الطبرى فى تفسيره يعتمد على روايات الصحـــابة والتابعين ٠

وكان لايقبل مالم يجيء به نص صريح فى القرآن الكريـم وما يدخل فى باب الحدس والتخمين ومثال ذلك موقفه من تفسير الآيات البينات ٠

((اذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربـك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ،قالوا نريد أن ناكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنـا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينـا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنـا وأنت خير الرازقين ، قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » ٠

فقد تساءل المفسرون هل كان على هذه المائدة طعام وهل كان سمكا أم خبزا أم من ثمرات الجنة أم غير ذلك

ولكن ابن جرير الطبرى قال ان العلم بذلك غير نافع ، فلـم يرض أن يفتى فيما لايعلمه الا الله تعالى ٠

وكان الطبرى ملما بالشعر والأدب مما ظهر اثره واضحـا فى تفسيره ، وقد اتسع فى تفسيره بالوجهة اللغوية ، كما اتسع أيضا بالشعر وروايته ٠

ويذكر ياقوت فى ترجمته أنه كان يحفظ كثيرا من الشعر ٠ ولما جاء الى مصر فى طلب الحديث كان يحفظ حتى شعر الطرماح

وتعرض له الأدباء يسألونه عن الشعر ، فرأوه بارعا فيه فسألوه عن شعر الطرماح ولم يكن من بينهم من يحفظه فاذا هو يحفظه ٠

وهذه المعرفة الواسعة بالشعر القديم وغريبه أتاحت لابن جرير مادة واسعة فى تفسيره من حيث استشهاده بالشعر مرات عدة ٠

ورفض ابن جرير الطبرى ان يفتح بابا فى تفسيره الى الاسرائيليات كما اعترف بذلك المستشرق جولديهر فى كتابه عن التفسير فى الاسلام ٠

وظهر بعد الطبرى جماعة كبيرة من المفسرين منهم النقاش الموصلى المتوفى عام ٣٥١ هـ صاحب كتاب « شفاء الصدور »

وظهر الحوفى المصرى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ صاحب كتاب البرهان فى تفسير القرآن ٠

وظهر غير هؤلاء جمهور كبير من المفسرين ، اختلفت مناهجهم وتباينت طرقهم ٠٠ بين اهتمام باللغة أو بالفقه أو بالقصص الى غير ذلك ٠٠

علوم الحديث :

أما الحديث فاستقرت قواعده بعد الكتب الستة الآنفة الذكر بيد انه ظهرت من المؤلفين فى هذا العلم طائفة جديدة ٠

ومن هذه الطائفة الحاكم النيسابورى المتوفى عام ٤٥٠ هـ وابو الفتح سليم بن ايوب الرازى المتوفى عام ٤٤٧ هـ والبيهقى المتوفى عام ٤٥٨ هـ ٠

وظهر الفراء النبوى المتوفى عام ٥١٦ هـ فى القرنين الخامس والسادس الهجريين وله كتاب « مصابيح السنة » فى الحديث ٠

كما ظهر ابو العباس التجيبى الأندلسى المتوفى عام ٥٥٠ هـ وله كتابان ٠

١ ـ الكوكب الدرى المستخرج من كلام النبى ٠
٢ ـ الدر المنظوم فيما يزيل الهموم والغموم

وظهر ابو السعادات المبارك مجد الدين بن الأثير الجزرى المتوفى فى أوائل القرن السابع الهجرى ٠

وله عدة كتب مفيدة نذكر منها :

١ ـ جامع الأصول فى احاديث الرسول ورتب فيه الأحاديث على الحروف الابجدية حسب موضوعاتها ٠

٢ ـ النهاية فى غريب الحديث والأثر فى اربعة مجلدات ومرتب أيضا على الحروف الأبجدية ٠

كما ظهر جماعة كبيرة من الفقهاء نذكر منهم ابن حزم الظاهرى صاحب كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، وكتاب جمهرة النسب فى معرفة قبائل العرب أو جمهرة الانساب والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من المؤلفات القيمة ٠

الفلاسفة المسلمون

وظهر ابو حامد الغزالى المتوفى عام ٥٠٢ هـ ومؤلف كتب البسيط ، والوسيط المحيط بأقطار البسيط ، وتهافت الفلاسفة ، والمنقذ من الضلال ، واحياء علوم الدين ، وجوهر القرآن وغير ذلك من المؤلفات النفيسة ٠

وقد برع الغزالى فى الدين والفلسفة والتصوف ، وكان حديثه عن السببية يفوق أحاديث عباقرة الفلاسفة فى أوربا ٠

وهو لاينكر السبب ، ولكنه يفسره التفسير الذى يقره عقله ، ولايستطيع أن يقره بغير هذا التفسير .

والأسباب عند الغزالى هى المقارنات التى تجرى بها العـــادة أو كما قال فى تهافت الفلاسفة « ان استمرار العادة بها مرة بعد اخرى يرسخ فى أذهاننا جريانها على وفق العادة الماضيـــة ترسخا لاتنفك عنه »

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى توضيح السببية عند الغزالى وهى من النظريات العلمية التى نادى بها العلماء فى الغرب:

« كان الغزالى أصح قياسا من دافيد هيوم ، لان دافيد هيـــوم يمنع المعجزة ولايقبلها »

« وغاية ما يستند اليه فى هذا المنع ان التواتر فى حوادث المعجزات المروية لا يثبتها مع أن التواتر عنده لا يدل على السبب الفاعل ، ولايبطل السبب الفاعل من باب أولى .

« نعم انه يتحفظ فيقول ان المعجزة ممتنعـــة بحسب ما نعلم من تجاربنا المألوفة ، ولكن هذا التحفظ من قبيل تحصيل الحاصل لأن المعجزة هى مخالفة مانعلم من التجارب المألوفة .

فكأنه يقول ان المعجزة ممتنعة لانها معجزة او انها مخالفـــة للمألوف لأنها مخالفة للمألوف .

« والغزالى أصح قياسا من « جون ستيوارت مل » حين يقول : « ان مسألة المعجزة يمكن ان توضع وضعا منصفا حين يقـــال انها قائمة على موازنة بين الأدلة أو بين مقدار من البينات الايجابية تدعيها ، ومقدار من التقديرات ينفيها من التجربة الانسانية العامة التى تمنعها »

موسوعات اللغة عند المسلمين

وظهرت فى العربية موسوعات كبيرة فى اللغة كتبهـــا عدد من العلماء المسلمين الذين توفروا على دراسة اللغة دراسة وافية متينة ·

فظهر كتاب الاشتقاق والجمهرة لابن دريد ، وكتاب اللمع فى النحو ، ومختصر القوافى لابن جنى ، وكتاب الايضاح لأبى على الفـــارسى ·

كما ظهر التهذيب للأزهرى ، والمجمل لابن فارس ، والمحكم والمخصص لابن سيدة ولسان العرب لابن منظور ت عام ٧١١ ، والقاموس للفيروزابادى ت ٨١٧ ·

هذا بالاضافة الى الكتب الزاخرة فى الأدب ككتاب الأغانى ، وأمالى القالى وأمالى المرتضى ، والكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، ونهاية الأرب للنويرى وكتاب المعارف لابن قتيبـة ، وغير ذلك من الكتب الأدبية ·

فاذا أضفنا الى ذلك كله التراث الشعرى الخالد ، وشعـــر الشعراء فى صدر الاسلام والعصور الأموية والعبـــاسية وفى الأندلس والعصور العثمانية حتى العصر الحديث اتضحت أمامنا معالم امجاد المسلمين وتفوقهم فى كل فن ونبوغهم فى كل مجال ·

الرحلات عند المسلمين ·

اما الرحلات فقد قطعوا شوطا كبيرا فيها وجالوا فى شتى الأقطار والأمصار وكان من أشهرهؤلاء الرحالين ابن جبير وأبوحامد المازنى من أهل غرناطة فى الاندلس ·

وقد قام ابن جبير فيما بين سنتى ١١٨٣،١١٨٥ م برحـــلة من غرناطة الى مكة وعاد بنفس الطريق ، وزار مصر والعـــراق والشام ·

وكان بعض هذه الأجزاء فى ايدى الصليبيين ، كذلك زار ابن جبير صقلية ثم رحل الى الشرق بعد ذلك مرتين .

المرة الأولى فيما بين سنتى ١١٨٩، ١١٩١، والثانية عام١٢١٧ ولكنه فى الرحلة الأخيرة لم يصل الا الى الاسكندرية فحسب حيث قضى نحبه فيها .

أما ابن بطوطة فكان جواب الآفاق المسلم فى القرون الوسطى وقد قام باربع رحلات الى مكة اغتنم فرصة الحج فيها المطواف حول العالم الاسلامى فطاف فى الشرق حتى وصل الى سيلان والبنغال وجزائر مالديف والصين كما زار القسطنطينية .

وكانت آخر رحلاته عام ١٣٥٣هـ التى توغل فيها فى افريقيا

كما اشتهر من العلماء ابن حوقل صاحب كتاب « المسالك والممالك » والاصطخرى صاحب كتاب الأقاليم وكتاب مسالك الممالك .

وقد زاد ابن حوقل فى كتابه بعض الاضافات على كتاب الاصطخرى .

كما كتب المقدسى (توفى ٣٧٥) كتاب احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، وضمنه رحلاته المختلفة وتجاربه وقراءاته واستقراءاته.

ويمكن تقسيم الرحلات التى تمت فى العصور الاسلامية على الوجه الآتى .

رحلات تمت بعد ظهور الاسلام مثل رحلات ابن موسى المنجم ، وسلام الترجمان واليعقوبى وقد حدثت فى القرن التاسع للميلاد .

وفى القرن العاشر للميلاد ظهرت رحلات ابن فضلان والمسعودى والمقدس وابى دلف .

وفى القرن الحادى عشر للميلاد ظهرت رحلات البيرونى .

وفى القرن الثانى عشر للميلاد ظهرت رحلات الأدريسى وابن جبير وابى حامد الغرناطى واسامة بن منقذ .

وفى القرن الثالث عشر للميلاد ظهرت رحلات عبد اللطيف البغدادى وياقوت الحموى وابن سعيد والعبدرى والتجانى .

وفى القرن الرابع عشر كان على رأس الرحلات العربية الاسلامية رحلات ابن بطوطة .

وفى القرن الخامس عشر للميلاد ظهرت رحلات الظاهرى والملك قايتباى وغيرهما

وفى العصر الحديث ظهرت رحلات احمد فارس الشدياق وامين الريحانى وغيرهم كما ظهرت رحلة رفاعة الطهطاوى الى باريس فى كتابه المعروف « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » .

ولاشك ان هؤلاء الرحالة والجغرافيين كانوا خير رسل لنشر الثقافة الاسلامية ، وحمل الدين الاسلامى الى ماوصلوا اليه من بقاع بعيدة ، وأقطار نائية .

وقد كان الدين الاسلامى المنارة التى يسيرون على هديها ، والشعلة المتقدة التى تتوهج فى قلوبهم وتزيدهم ايمانا ،وتملأهم قوة وثباتا .

وقد كان الاسلام دائما يدعو الى الحركة ويستنكر الكسل والخمول ، ولما قبض النبى عام ٦٣٢م خلفه من بعده الخلفاء الذين وجهوا جيوشهم الى الشأم وفارس والعراق فافتتحوها كما افتتحوا ارمينيا والقوقاز وتوغلوا فى بلاد الروم .

كما استولى المسلمون على تركستان ونزلوا الى أرض الهند ، وواصلوا زحفهم الى سيمون وجيحون ووادى مهران بالهند .

وفى الغرب استولوا على مصر والنوبة وبرقة وعبروا جبل طارق الى الاندلس حيث استمر حكم المسلمين فى هذه البلاد فترة طويلة من الزمن ٠

وبلغ سلطان المسلمين حدود جبال البرانس ، وتوغل أثرهم فى فرنسا وأوربا جميعا ٠

وعبروا وادى الرون فى أوربا وسهول لمبارديا فى ايطاليا فضلا عن احتلالهم للجزر القابعة فى البحر الأبيض المتوسط ٠

رحلات الرسول الكريم :

وكان الرسول الكريم يعمل فى التجارة وكان يضرب فى فجاج الأرض وطوف فى الصحراء ٠

وكانت الفترة التى عمل فيها مع خديجة رضى الله عنها من أخصب الفترات فى حياته حركة وأكثرها سفرا وأحفلها بالرحلة ٠

وسافر الرسول بالتجارة الى الشام أكثر من مرة فذهب به عمه أبو طالب الى بصرى وهو فى الثانية عشر من عمره ٠

وهناك لمح فيه راهب اسمه بحيرا علامات النبوة بعد أن سأله عن أمور فى نومه ويقظته ٠

وسافر الرسول الى الشام وهو فى الخامسة والعشرين مع ميسرة غلام السيدة خديجة فربحت التجارة ربحا وفيرا ٠

وعندما شعر المسلمون ـ بعد بعثة الرسول ـ بالضيق هاجروا الى الحبشة وكان الرسول لما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » ٠

وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة أمرأة سوى الصبيان وكلهم من بطون قريش ·

وكان فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول والزبير ابن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عميس وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأخوه خالد بن سعيد بن العاص ·

وقد أكرمهم النجاشى وأمنهم على حياتهم وأصبحوا فى رغد من العيش واضطر الرسول نفسه أن يرعى الغنم قبل البعثة لحساب غيره ، وذهب عليه السلام بالتجارة الى بلاد اليمن والشام ·

العلم والعمل :

فالاسلام والعلم صنوان لايفترقان ، والانسان يمتاز عن الحيوان بقوة العقل والفعل وسلامة التفكير وقوة التدبير وسلامة التعبير ·

والله سبحانه وتعالى فرق فى كتابه العزيز بين الذين يعلمون والذين لايعلمون فقد قال جل ثناؤه (**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون**)

وقال النبى صلى الله عليه وسلم« **فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب** » ·

وقال صلى الله عليه وسلم ((**الايمان عريان ولباسه التقوى ، وزينته الحياء وثمرته العلم**)) ·

وقال أيضا « اذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى من الله عزوجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم))

وقال أيضا ((**العلماء ورثة الانبياء**))

وفى حديث آخر « **من يرد الله به خيرا يفقهـــه فى الدين ويلهمه رشده** »

ودعا الاسلام الى نشر العلم وعدم التوانى فى ذلك ، حتى يتم الخير بين أبناء الانسانية ، ويسود الفضل بينهم .

فقال تعالى فى كتابه العزيز « **فلولا نفر من كل فرقة منهـم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم ، اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** »

وقال تعالى « **واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننـه للناس ولاتكتمونه** »

وقال الرسول الكريم « **أفضل الصدقة ان يتعلم المرء المسلم علما، ثم يعلمه اخاه المسلم** »

وقال رسول الله صلى الله عليه وســـلم ايضـــــا « **ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم** »

وكما دعا الاسلام الى العلم دعا الى العمل والسعى فى طلب الرزق والانتشار فى فجاج الأرض

فقال تعالى ((**فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله**))
وقال تعالى ((**فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور**)).

وقد قسم الله عزوجل المعيشة بين الناس فقال جلت صفاته
((**نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا**))

أما الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فانه دعا كذلك الى العمل فقال : (**من طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسكنة وسعيا على عياله، وتعطفا على جاره لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر**))
وقال عليه السلام « **ان الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغنى بهـــا عن الناس** »

وقال عمر بن الخطاب فى الحث على العمل (لايقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى وقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولافضة)

وقال الامام محمد عبده فى فضل العلم « المسلمون مسوقون بنابل دينهم الى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ولايرضيهم من ذلك مادونه الغاية ، ولايتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم »

وفى الفصول القادمة سوف نتحدث عن نخبة من الرحالة والعلماء المسلمين الذين كرسوا حياتهم للعلم وللعمل آملين أن نتمكن من اعداد مادته أو فصول من الالمام بشخصيات أخرى لها دور كبير واثر جليل وفضل عظيم على الثقافة العربية والعالم الاسلامى .

الفصل الثانى

مشاهير علماء المسلمين



ابن بطوطه

رحالة مشهور اسمه محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى . ولد فى مدينة طنجة ببلاد مراكش فى السابع عشر من شهر رجب عام ٧٠٣ هـ (٢٤ فبراير ١٣٠٤ م) .

وقد نشأ فى بسطة من العيش ، وسعة من الرزق ، ثم خرج من مدينة طنجة وهو فى الثانية والعشرين من عمره قاصدا الحجاز لأداء فريضة الحج ، فمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر ، ثم قصد الى عيذاب على البحر الأحمر مارا ببلاد الصعيد ليعبر البحر الأحمر ، فلم يتهيأ له العبور ، فعاد الى الفسطاط ثم رحل عنها الى فلسطين ولبنان وسورية والحجاز ، فحج حجته الأولى ، ومن مكة سافر الى بلاد العراق والأناضول ، ثم عاد الى مكة حيث حج الى بيت الله الحرام للمرة الثانية . وظل بمكة سنتين ثم غادر البلاد الى اليمن ، وعبر البحر الى أفريقية الشرقية ، ثم رجع منها مارا بجنوب جزيرة العرب حتى الخليج العربى ، فزار عمان والبحرين والاحساء ثم عاد الى مكة حيث أدى فريضة الحج للمرة الثالثة ، ثم خرج من مكة الى بلاد الهند مارا بخوارزم ، وخراسان ، وتركستان ، وأفغستان وكابول ثم السند . وتولى هنالك القضاء فى دهلى على المذهب المالكى للسلطان محمد شاه .

ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفدا الى ملك الصين خرج ابن بطوطة فيه ، وفى طريق عودته مر بجزيرة سرنديب وجزائر الهند

والصين ، ومن هناك عاد الى بلاد العرب من طريق سومطرة عام ١٣٤٧ م ، فزار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين ، ومنها عاد الى مكة للمرة الرابعة ، وادى فريضة الحج • وعندئذ تاق الى العودة الى مسقط رأسه ، فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش ، ووصل فاس عام ١٣٤٩ م •

ولم يمكث ابن بطوطة فى وطنه طويلا ، بل استأنف رحلته الى بلاد الأندلس عابرا مضيق جبل طارق الى غرناطة ، ثم عاد مرة ثانية الى مدينة فاس ، وألقى فيها عصا التسيار •

وعاوده الحنين مرة أخرى الى السفر ، فغادر وطنه الى السودان ومر بسجلماسة ، وتفازا ، ومالى ، وزاغرى ، وتمبكتو وهكار ، وغيرها ، حتى اذا ماروى غليله من التنقل والسفر عاد الى فاس •

وقد قاسى ابن بطوطة فى رحلاته كثيرا من الصعاب والمشقات ، وأصيب ببعض الأمراض وفى ذلك يقول فى الصفحات الأولى من كتابه : (وتجردنا للسير ، وواصلنا الجد ، وأصابتنى الحمى ، فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف » •

وكان ابن بطوطة شديد الحساسية ، وكان شعوره بالوحدة يدعوه الى الانقباض والحزن اذ ترك أهله وعشيرته وهو فى شرخ الشباب •• ويقول فى مقدمة رحلته أنه ترك والديه ، فتحمل لبعدهما وصبا ، كما لقى من الفراق نصبا ..

ولما علم بوفاة والدته فى أثناء غيبته فى رحلته الأولى تملكه الحزن ، واستبد به الأسى ، وانكفأ على قبرها يبكيها • ويقول فى كتابه : « فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم على أحد لعدم معرفتى بهم ، فوجدت من ذلك فى النفس مالم أملك معه سوابق العبرة ، واشتد بكائى فشعر بحالى بعض الحجاج ، فأقبل على بالسلام والايناس » •

وأملى ابن بطوطة رحلاته على الأديب محمد ابن جزى الكلبى ، فانتهى من كتابتها عام ١٣٥٦ م وأطلق عليها « تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » ، فأملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار وما علق بحافظته من نوادر الاخبار ، ومالقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار ، وأوليائها الأبرار وأملى من ذلك مافيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة أفاد باجتلائها ، وعجيبة أطرف بانتحائها .

ويقول الأديب محمد بن جزى الكلبى فى معرض تسجيله لما أملاه ابن بطوطة : » ونقلت معانى كلام الشيخ ، بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها ، موضحة للمناحى التى اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه ولم أخل بأصله ولا فرعه . وأوردت جميع ماأورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختيار . على أنه سلك فى اسناد صحاحها أقوم المسالك، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر الألفاظ بذلك ، وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أنفع فى التصحيح والضبط ، وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء الأعجمية ، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطىء فى فك معماها معهود القياس »

وقد كشفت هذه الرحلات عن أسرار كثير من البلاد التى زارها ابن بطوطة ، اذ يعد أول من ذكر شيئا عن استعمال ورق النقد فى الصين ، وعن استخدام الفحم الحجرى ، وكان صادقا فى أغلب أوصافه حتى أن المستشرق الكبير « دوزى » أطلق عليه « الرحالة الأمين » .

وأفاد ابن بطوطة علم الجغرافيا بما ذكر من أوصاف للبيئة الطبيعية والتضاريس ، والجغرافية البشرية ، والسكان والعادات والتقاليد ، وما الى ذلك من أمور تهم الجغرافيين كما تهم علماء الاجتماع وغيرهم من الدارسين فى أحوال الشعوب .

وقد وصف ابن بطوطة مصر فى رحلته وصفا جميلا ، وكان مما قال فيها : « هى أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة ، المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر • وبها ماشئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها • شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لايبرحها عن منزل السعد • قهرت قاهرتها الأمم ، وتملكت ملوكها نواصى العرب والعجم • لها خصوصية النيل التى جل خطرها ، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها • وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، وكريمة التربة ، مؤنسة لذوى الغربة . قال ابن جزى ، وفيها يقول الشاعر

لعمرك ما مصر بمصر انما   هى الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان، والحور عينها   وروضتها الفردوس، والنيل كوثر

* * *

ومما ذكره عن الحالة الاجتماعية فى مصر قوله : « ان بمصر من السقايين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء ، وان بها ثلاثين ألف مكار ، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفا ، للسلطان وللرعية تمر صاعدة الى الصعيد ، ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط ، بأنواع الخيرات والمرافق • وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة » •

وقال فى وصف طبائع المصريين : « وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو • شاهدت بها مرة فرجة ، بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى ، وثياب الحرير ، وبقوا على ذلك أياما »

ومن أطرف ما وصف به الاسكندرية قوله : « وصلنا الى مدينة الاسكندرية ــ حرسها الله ــ وهى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين • كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب • فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فاليها انتهاؤها وقد وصفها الناس فاطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا • وحسب المشرف الى ذلك ماسطره أبو عبيد فى كتاب المسالك •

ووصف أبواب الاسكندرية فقال : ان لها أربعة أبواب : باب « السدرة » واليه يتصل طريق المغرب ، وباب رشيد ، وباب البحر ، والباب الأخضر وهو لايفتح الا يوم الجمعة ويخرج الناس منه الى زيارة القبور •

ومن غرائب الاسكندرية عمود الرخام الهائل الذى بخارجها المسمى بعمود السوارى ، وهو متوسط فى غابه نخل ، وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا . وهو قطعة واحدة محكمة النحت وقد اقيم على قواعد حجارة مربعة ، أمثال الدكاكين العظيمة ، ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه » •

ومن أطرف ماوصف به مدينة دمياط قوله : « والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن وبها الألبان الجاموسية التى لامثيل لها فى عذوبة الطعم ، وطيب المذاق • وبها الحوت البورى يحمل منها الى الشام وبلاد الروم ومصر ، وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ ، بها مسجد وزاوية ، ولقيت بها شيخها المعروف بابن قفل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار ، قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة

وذكرا . ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هى التى خربها الافرنج فى عهد الملك الصالح ، وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى » .

وقال فى وصفه لنيل مصر : « ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ، ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزدرع عليه على النيل ، وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره قال الله تعالى : « فاذا خفت فألقيه فى اليم » . فسماه بما هو البحر . ومجرى النيل من الجنوب الى الشمال ، خلافا لجميع الانهار . ومن عجائبه أن ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها ، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها . والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وهى : النيل ، والفرات ، والدجلة ، وسيحون ، وجيحون وتماثلها أنهار خمسة أيضا : نهر السند ويسمى « بنج آب » ونهر الهند ويسمى « الكنك » ، واليه تحج الهنود واذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ، ويقولون : هو من الجنة ، ونهر الجون بالهند أيضا ، ونهر أتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ، ونهر السرو بأرض الخطا (الصين الشمالية) ، وعلى ضفتيه مدينة خان بالق ومنها ينحدر الى مدينة الخنسا ثم مدينة الزيتون بأرض الصين .

« والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولايعبر نهر منها الا فى السفن شتاء وصيفا ، وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا أمد ترعها فاضت على المزارع » .

وتنقل ابن بطوطة بين مدن الصعيد ، ووصف الحياة فيها ، وكان مما وصف به مدينة « منلوى » قوله : « وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ومن عاداتهم أنهم لايمنعون فقيرا من دخول معصرة منها ، فيأتى الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها فى القدر التى

يطبخ السكر فيها ، ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا فينصرف بها ».

ووصف ابن بطوطة بعد ذلك مدينة أسيوط ومنها سافر الى مدينة أخميم ، فمدينة « هو » بساحل النيل وضبطها بضم الهاء »· فمدينة قنا ، فمدينة قوص ، فمدينة الاقصر ، فمدينة أرمنت ، فمدينة اسنا ، وسافر من اسنا الى ادفو - وبينهاوبين اسنا مسيرة يوم وليلة فى صحراء - ثم وصل بعد ذلك الى عيذاب أو عيدات ، وهى مدينةكبيرة كثيرة الحوت واللبن ، ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر ، وأهلها البجاه ، وهم سود الألوان ، وكانـــوا يلتحفون ملاحف صفرا ، ويشدون على رءوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها أصبعا ، وكانوا لايورثون البنات ، وطعامهم ألبان الابل ، وقد حالت الحرب القائمة بين البجاة والأتراك من استئناف رحلته فى البحر ، فعاد الى شمال مصر . ثم دخل الشام فوصف مدنه والمسجد المقدس وقبة الصخرة ، وبعض ماشاهده بالقـدس الشريف ، وفضلاء القدس ، ومدينة صور وطرابلس الشام ، وحلب ومما جاء ذكره فى وصف حلب قوله : « وقلعة حلب تسمى الشهباء، وبداخلها جبان ، ينبع منهما الماء فلا تخاف الظمأ . ويطيف بهـا سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء ، وسورها متـــدانى الأبراج وقد انتظمت بها العلالى العجيبة المفتحة الطيقان ، وكل برج منها مسكون ، والطعام لايتغير بهذه القلعة على طول العهد وبهـا مشهد يقصده بعض الناس يقال ان الخليل (عليه السلام) كان يتعبد به » ·

وزار ابن بطوطة مدينة بعلبك · وهى حسنة قديمة من أطيب مدن الشام « تحدق بها البساتين الشريفة ، والجنات المنيفـة ، وتخترق أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهى دمشق فى خيراتهـا المتناهية ، وبها يصنع الدبس المنسوب اليها ، وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ، ولهم تربة يصفونها فيه فيتجمد ، وتكسر القلة التى يكون بها فيبقى قطعة واحدة ، وتصنع منها الحلواء ، ويجعل

فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء الملبن ، ويسمونها أيضا بجلد الفرس • ويصنع فى بعلبك الثياب المنسوبةاليها من الأحرام وغيره ، ويصنع بها أوانى الخشب ، وملاعقه التى لانظير لها فى البلاد ، وهم يسمون الصحاف بالدسوت ، وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع فى جوفها أخرى الى أن يبلغوا العشر ، يخيل لرائيها أنها صفحة واحدة ، وكذلك الملاعق يصنعون فيها عشرا واحدة فى جوف واحدة » • وهكذا قدم لنا ابن بطوطة صورة واضحة عن نهضة الصناعة فى مدن الشام فى هذه الحقبة من التاريخ •

ووصل ابن بطوطة دمشق فى يوم الخميس السابع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين وسبعمائة (٧ أغسطس ١٣٢٦م) ونزل منها بمدرسة المالكية المعروفة « بالشرابشية » ودمشق عنده تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا • وقد أورد فى ذلك قول ابن جبير فى رحلته : « أما دمشق فهى جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الاسلام التى استقربناها وعروس المدن التى اجتليناها • قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين وحلت موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت فى منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى المسيح (عليه السلام) وأمه منها الى ربوة ذات قرار ومعين •• ظل ظليل، وماء سلسبيل ، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم : هلموا الى معرس للحسن ومقيل ؛ وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء » •

ووصف ابن بطوطة بعد ذلك جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية ، وبعض المشاهد والمزارات بها ، وأرباض دمشق ، وجبل قاسيون فى شمال دمشق ، والصالحية فى سفحه ، والربوة والقرى التى تواليها ، والأوقاف فى دمشق ، وبعض فضائل أهلها وعاداتهم ، ومن ذلك قوله فى وصف الحياة الاجتماعية فى شهر رمضان المبارك : « ومن فضائل أهل دمشق أنه لايفطر أحد منهم

في ليالي رمضان وحده البته ، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فانه يدعو أصحابه الفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ، ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا » .

وانتقل ركب ابن بطوطة بعد ذلك الى الحجاز فعرج على المدينة ، ووصف مسجد رسول الله وروضته الشريفة ، ووصف المنبر الكريم ، والخطيب والامام بمسجد رسول الله ، وخدامه ، ومؤذنيه ، وبعض المشاهد بخارج المدينة الشريفة ، ووصف الطريق الى مكة ، فمكة نفسها ، والمسجد الحرام ، والحجر الأسود ،والحجر والمطاف ، وزمزم والصفا والمروة ، والجبانة المباركة ، والجبال المحيطة بمكة ، وأهل مكة وفضائلهم ، ثم وصف العراق وايران ، فتركيا والقسطنطينية وغيرها من البلاد .

وله في الهند وجزرها ، وجاوة وسومطرة وغيرها ، أوصاف شتى . من طريف ماذكره في الهند قوله : « ولما عبرنا نهر السند المعروف « ببنج آب » دخلنا مزرعة قصب ، لأن الطريق يسير في وسطها ، فخرج الكركدن — وهو حيوان أسود اللون ، ضخم رأسه كبير متفاوت الضخامة فلذلك يضرب به المثل ، فيقال : الكركدن رأس بلابدن . وهو أصغر من الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف ، وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ذراعين .. ولما خرج علينا ، اعترضه بعض الفرسان في طريقه ، فضرب الفرس الذي كان تحته بقرنه ، فنفذ في فخذه وقتله » .

ووصف ابن بطوطة بعض عادات أهل الهند ، مثل احراق النساء ، فقال : « ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم : ما الخبر ؟ فأخبروني بأن أحد الهنود مات ، وأشعلت النار لحرقه ، وامرأته

تحرق نفسها معه • ولما احترقا جاء صحابى وأخبرونى أنهـــا عانقت الميت حتى احترقت معه ، ثم اتفق بعـد ذلك أن كنت في مدينة قتل منها سبعة من الهنود وكان لثلاثة منهم زوجات فاتفقن على احراق أنفسهن • واحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مرغوب واجب • ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ، ونسبوا الى الوفاء • ومن لم تحرق نفسها لبست الثيـــاب الخشنة وأقامت عند أهلها يائسة لعدم وفائها ، ولكنها لاتكره على احراق نفسها » •

ووصف الأعراس بالهند وصفا جميلا رائعا فقال : « لما أمـــر السلطان بتزويج أخته بالأمير غدا ، عين بشأن الوليمة وتفنانها الملك فتح الله المعروف بشونويس ، وعيننى لملازمـــة الأمير فأتى الملك فتح الله بالصيوانات تظلل بها أفنية القصر ، وضرب فى كل واحدمنها قبة ضخمة جدا وأتى بأمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والراقصات ، وكلهن مماليك السلطان وأحضر الطباخين والخبازين ، والشوائين وصانعى الحـــــلوى والشراب والأفاوية • وذبحت الأنعام والطيور ، وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما ، ويحضر الأمراء والكبار والأعزة ليــــلا ونهارا فلما كان قبل ليلة الزفاف بليليتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلا الى القصر فزينه بأحسن الفرش وجاء الأمير ، وأجلسه على المرتبة ، وجعل له الحناء فى يديه ورجليه ، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن ، وانصرفن الى قصر الزفاف ، وأقام هو مع خواص أصحابه •• » •

ووصف سطوة السباع فى الهند فقال : « ان بمدينة برون سباعا كثيرة وذكر له بعض أهلها أن السبع كان يدخل اليهـــا ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلهـــا كثيرا ، وكانوا يعجبون من شأن دخوله ، كما أخبره جار له أن السبع دخل داره ليلا ، وافترس صبيا من فوق السرير • وأخبره غيره أنه كان

مع جماعة فى دار عرس فخرج أحدهم لحاجة ، فافترسه أسد ، فخرج أصحابه فى طلبه فوجودوه مطروحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه • ومن العجب أن بعض الناس أخبره أن الذى يفعل ذلك بسبع انما هى آدمى من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور فى صورة سبع » •

ووصف ابن بطوطة جزر « المليبار » وغيرها من جزر المحيط الهندى ، وتنقل بين أنحاء سيلان ، وذكر أن جميع النساء بالجزيرة لهن قلائد من الياقوت الملون ، ويجعلنه فى أيديهن وأرجلهن عوضا من الاسورة والخلاخيل ، وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رءوسهن ورأى ابن بطوطة على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه ، كل حجر أعظم من بيضة الدجاجة •

وله فى جاوة والصين أوصاف شائقة منها أن دجاج الصين وديوكها ضخمة جدا أضخم من الأوز ، وبيض الدجاج أضخم من بيض الأوز عندنا أما الأوز عندهم فلا ضخامة له وأراد ابن بطوطة أن يأكل دجاجا ، فاشترى واحدة وأراد طبخها فى اناء واحد ، فلم يسع لحمها فجعلها فى اناءين والديك هناك على قدر نعامة وربما انتف ريشه فيبقي كتلة من اللحم حمراء •

وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها فى أسواقهم ، وهم أقل رفاهية وسعة عيش • وترى التاجر الكبير منهم الذى لاتحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة • وجميع أهل الصين يحتفلون فى أوانى الذهب والفضة ، ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى ويقولون هو الرجل الثالثة • والحرية عندهم كثير جدا لأن الدودة تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج لكثير من المئونة ، وهو لباس الفقراء والمساكين ، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب من الحرير •

كما ذكر ابن بطوطة حقيقة تاريخية هامة فى رحلتـه ، وهى استخدام أهل الصين لورق النقد فقال : « وأهل الصين لايتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع مايتحصل ببلادهم من ذلك يسـكبونه قطعا كما ذكرناه ، وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد (ورق) كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان » • وجميع أهـل الصين انما « فحمهم تراب عندهم معقد كالطفل عندنا » ولونه لون الطفل تأتى الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر الفحم عندنا ويشعلون فيه كالفحم ، وهو أشد حرارة من نار الفحم • واذا صار رمادا عجنوه بالماء وجففوه وطبخوا به ثانية ، ولا يزالون يفعلون به كذلك الى أن يتلاشى • ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخـار الصينى ، ويضيفون اليه حجارة سوداء •

وذكر ابن بطوطة أن أهل الصين أعظم الأمم احكاما للصناعات، وأشدهم اتقانا فيها • أما التصوير فلا يجاريهم أحد فى احكامه ، لا من الروم ولا ممن سواهم • ومن عجيب ماشاهد أنه مادخل قط مدينة من مدنهم ، ثم عاد اليها ، الا ورأى صورته وصور أصحابه منقوشة على الحيطان والورق ، وموضوعة فى الأسواق •

ووصف ابن بطوطة رحلته الى الأندلس بعـد ذلك فقال عن خيراتها : « رأيت العنب يباع فى أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ، ورمانها المارس الياقوتى لانظير له فى الدنيـا أما التين واللوز فيجلبان منها الى المشرق والمغرب » •

وتنقل بين مالقه احدى قواعد الأندلس ، وغرناطة ، وغيرها وجاس فى أرض مراكش وتونس ثم عاد الى مدينة فاس •

وأزمع السفر فى الرحلة الثالثة الى السودان وقال : « ان الملح كثير هناك ، وبالملح يتصارف السودان كمـا نتصرف بالذهب

والفضة ، ويقطعونه قطعا ويتبايعون به • وقرية تغازى على حقارتها ـ يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر » •

وضايقت ابن بطوطة فى رحلته كثرة الذباب ، والماء الزعاق ، وقال ان القمل يكثر فى بعض المدن حتى يجعل الناس فى أعناقهم خيوطا فيها الزئبق فيقتله • الا أنه أشاد بغلات السودان من القمح واللوبيا والأرز والسلع العطرية والبخوروماالى ذلك • ومن العادات الحسنة التى ذكرها ابن بطوطة عن أهل السودان أنهم من حفظة القرآن ، ويدفع الآباء أبناءهم الى حفظه دفعا ومر ابن بطوطة مرة بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفى رجله قيد ثقيل، فقال لمن كان معه : مافعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عنه الشاب وضحك وقيل له : انما قيد حتى يحفظ القرآن •

وهكذا أخذ ابن بطوطة يقص علينا رحلته وعلى هذه الوتيرة مضى يملى مشاهداته فى كتاب « تحفه النظار من غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وقد وجه الأنظار الى رحلته فمضى الناس بين مصدق ومكذب ، وشك ابن خلدون فى مقدمته فى بعض ماورد ذكره فى هذه الرحلات •

على أن رحلة ابن بطوطة ظلت موضع التفات كثير من المستشرقين والباحثين فترة طويلة ، وانتقدها الفرنجة وعلقوا عليها ونقلوا بعضها الى اللغة اللاتينية ونشروه ، ونقلها « لى » الى اللغة الانجليزية وطبعت فى لندن عام ١٨٢٩ ، ونقلها « ديفر بمرى » و « سنكونيتى » الى الفرنسية ، وطبعت فى باريس فى عامى ١٨٥٣ و ١٨٥٩ فى خمسة مجلدات فيها فهرس أبجدى وترجم « دى سلان » بعضها الى الفرنسية عن السودان ، وترجم آخر ما يختص بأواسط آسيا وترجم ثالث ما يختص بآسيا الصغرى. وترجمها « مزيك » الى الألمانية وطبعت عام ١٩١٢ ولها ترجمة

تركية اسمها « تقديم وقائع » ، ولها مختصر كتبه محمد فتح الله
ابن محمود البيلرنى موجود فى جامعة كامبردج . وهناك مختصر
الكتاب مجهول طبع على الحجر عام ١٢٧٨ (١٨٦١ م) وطبعت فى
مصر فى مطبعة وادى النيل عام ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) ، وفى المطبعة
الخيرية عام ١٣٢٢ (١٩٠٤ م) .

وتوفى ابن بطوطة بمراكش عام ١٣٧٨ م فى نحو الرابعة
والسبعين .

القـــزويــــنى

القزوينى عالم عربى معروف ، ويكنى بأبى عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القاضى • وكان اماما ، وعالما وفقيها ، ولد فى مدينة قزوين عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) ورحل الى دمشق وهو شاب وتعرف بابن العربى ، وتولى قضاء واسط والحلة فى زمن المعتصم العباسى • وعندما ســـــقطت بغداد فى يد التتــــار عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) كان القزوينى لايزال فى هذا المنصب •

ويرجع نسب القزوينى الى الامــام المشهور أنس بن مالك ، ولذلك كان ذا منزلة دينية معروفة • وقد تــرك القزوينى بعض المؤلفات التى تدل على ثقافته وتفكيره ، منها كتاب « عجـــائب المخلوقات والحيوانات ، وغرائب الموجودات » ، ويتحدث فى الفلك والجغرافيا الطبيعية عند العرب ويعد من آوفى المراجع فى هــذا الميدان ، لولا مايشوبه من الأوهام التى كانت شـــائعة على ذلك العهد •

وقسم القزوينى المخلوقات فى هذا الـــكتاب الى العلويات والسفليات • وكان يقصد بالعلويات مايتعلق بالسماء وأبراجها ، والكواكب ومداراتها ، والشمس والقمر ، وما يتصل بذلك من علم الفلك ، وقد تحدث فى هذا القسم عن القمر وزيادة ضـــوئه ونقصانه وخواصه وتأثيراته ، وعن فلك عطارد ، والزهـــرة ، وعن الشمس وكسوفها وخواصها ، وعن فلك المريخ والمشترى وزحـــل والكواكب الثابتة ، والدب الأصغر والدب الأكبر ، وخواص القطب

الشمالى ، والبروج الاثنى عشر ، وخواص القطب الجنـــوبى ، ومنازل القمر ٠

والطريف أنه عرف لنا كثيرا من هذه المنازل والكواكب مثــل الثريا ، والدبران ، والذراع ، والطرف والجبهة ، والاكليـــــل والصرفة والنعائم وسعد السعود ، وبطن الحوت وما اليها ٠

وقد أكد القزوينى « أن لكل فلك مكانا لاينتقل عنه ، لكنه متحرك فيه باجرامه ، لايقف طرفة عين ، وسرعة حركاتها أسرع من كل شىء ٠٠ »

وأشار الى أن بعض الأفلاك تتحرك من المشرق الى المغــــرب كالفلك الأعظم ، ومنها مايتحــــرك من المغرب الى المشرق : كفلك الثواقب ، وأفلاك السيارات ٠ ومنها مايتحرك بالنسبة الينا كما أشار القزوينى الى أن خسوف القمر يحدث لتوسط الأرض بينـــه وبين الشمس ، فاذا كان القمر فى احدى نقطتى الرأس والذنب ــ أو قريبا منها عند الاستقبال ــ تتوسط الأرض بينه وبين الشمس فيقع فى ظل الأرض ، ويبقى على سواده الأصلى فيرى منخسفا ولما كانت الشمس أعظم من الأرض فيكون ظل الشمس مخروطا ٠

وأشار القزوينى فى كتابه كذلك الى المد والجزر وعلاقة ذلك بالقمر ، وقال أن القمر صار فى أفق من آفاق البحر وأخذ ماؤه فى المد مقبلا مع القمر ، ولايزال كذلك الى أن يصير القمر فى وسط سماء ذلك الموضع ، فاذا صار هناك انتهى المد منتهاه ، واذا انحط القمر من وسط سمائه ، بعد ذلك ، جزر الماء ولا يزال كذلك راجعا الى أن يبلغ القمر مغربه ، فعند ذلك ينتهى الجزر منتهاه ٠

وتحدث القزوينى بعد ذلك عن الأيام والشهور والسنوات ، والفصول من ربيع وخريف وصيف وشتاء ، وتعرض للفـــوارق بينها ٠

ومما قاله في وصف الشتاء : « هو وقت نزول الشمس أول الجدى : فعند ذلك تناهى طول الليل ، وقصر النهار ، ثم أخذ النهار فى الزيادة ، واشتد البرد ، وخشن الهواء ، وتعرى الأشجار من الأوراق ، وانحجزت الحيوانات فى أطراف الأرض وكهوف الجبال ، من شدة البرد وكثرة الندى ، وأظلم الجو ، وكلح وجه الزمان ، وهزات البهائم وضعفت قوى الأبدان ، ومنع البرد الناس عن التصرف »

ومما قاله في الربيع : « نزول الشمس من برج الحمل : فعند ذلك استوى الليل والنهار فى الأقليم واعتدل الزمان ، وطاب الهواء ، وهب النسيم ، وذابت الثلوج ، وسالت الأودية ، ومدت الأنهار ، ونبعت العيون ، وارتفعت الرطوبات الى أعلى فروع الأشجار ، وتلألأ الزهر ، وأورق الشجر وتفتح النوار ، واخضر وجه الأرض ، وتكونت الحيوانات ونتجت البهائم ، ودرت الضروع، وطاب عيش أهل الزمان .. »

ومما قاله فى الصيف : « هو نزول الشمس أول السرطان ، فعند ذلك تناهى طول النهار وقصر الليل ، ثم أخذ الليل فى الزيادة ، واشتد الحر ، وسخن الهواء وأدركت الثمار ، وجفت الحبوب ، وقلت الأنداء وأضاءت الدنيا ، وسمنت البهائم »

ومما قاله فى الخريف : «وهو وقت نزول الشمس أول الميزان: فعند ذلك استواء الليل والنهار مرة أخرى ثم ابتداء الليل بالزيادة وكما ذكرنا أن الربيع زمان استواء الأشجار وربو النبات ، وظهور الأزهار ، فبالخريف ذبول النبات ، وتغير الأشجار وسقوط أوراقها فحينئذ برد الماء ، وهبت الشمال وتغير الزمان ، ونقصت المياه ، وجفت الأنهار ، وغارت العيون ، ويبست أنواع النباتات ، وماتت الهوام وانحجزت الحشرات ، وانصرف الطير والوحش لطلب الدفيئة ، وادخر الناس قوت الشتاء ، ودخلوا البيوت ، ولبسوا

الجلود الغليظة من الثياب ، وتغير الهواء ، وصارت الدنيا كهلة تولت عنها أيام الشباب • »

وهذا التقسيم الذى سرده القزوينى فهى مادون ذلك القمر من العناصر والمولدات ــ وتسمى أيضا أركانا ــ وهى أربعة : النار والهواء والماء والتراب •

فالنار حارة يابسة ، ومكانها الطبيعى تحت الفلك ، وفوق الهواء • والهواء حار رطب ، ومكانه الطبيعى تحت الهواء وفوق الأرض •

والأرض يابسة باردة ، ومكانها الطبيعى الوسط ، بيد أن الهواء المحيط بالكون يصير باردا بسبب برودة الجمد فيصير ماء • والماء أيضا ينقلب هواء كما يشاهد من السموم فى بعض المواضع عند شدة الحر ، وكما نرى من كير الحدادين اذا بالغوا فى نفخه ، فان هواءه يصير بحيث اذا دنا منه شىء احترق •

وقد تحدث القزوينى فى هذا القسم عن كرة الهواء ، وعن السحاب ، والرياح والأمطار • وذكر أن الرياح مختلفة متباينة ، ومتنوعة متغايرة • فمنها مايسوق السحب ، وماينشرها ، ومنها مايجمعها ، ومنها مايعصرها ، ومنها مايقلع الأشجار ، ومنها مايربى الزرع والثمار ، ومنها مايجففها •

ورأى القزوينى أن أصول الرياح أربعة :

الشمال : ومهبها من بنات نعش الى مغرب الشمس •

والجنوب : ومهبها من مطلع سهيل الى مشرق الشمس •

والصبا : ومهبها من مطلع بنات نعش الى الشرق •

والدبور : ومهبها من مطلع سهيل الى المغرب •

وريح الشمال باردة لأنها آتية من المنطقة التى لاتسامتها الشمس أصلا ، بل ولا تقترب منها وتكون الثلوج والمياه الجامدة بها كثيرة ٠

وريح الجنوب حارة رطبة لأن هبوبها من ناحية خط الاستواء والحر مفرط هناك لأن الشمس تسامتها فى السنة دفعتين ولاتباعد عنها فتزداد بذلك حرا ٠

وريح الصبا قريبا من الاعتدال ، وتكون مائلة الى البرودة فى أول النهار ومنها والنسيم السحرى » أو نسيم السحر الذى يهب بالاشجار من الليل فيلتذ به الانسان ، ويطيب النوم عليه ٠

وريح الدبور تختلف عن الصبا : لأنها تهب والشمس مدبرة عنها فلا تسخنها تسخين الصبا كما تهب فى آخر النهار ، ولاتهب بالليل لأن الشمس تبلغ موضع مهبها ٠

وقد أشار القزوينى الى تخلخل الهواء ، وهبوب الريح ، اشارات كثيرة تدل على فهمه وادراكه ٠ كما عرف « الزوبعة » بأنها الريح التى تدور على نفسها شبه منارة ٠ وأكثر تولدها من رياح ترجع من الطبقة الباردة ، فتصادف سحابا تذروه الرياح المختلفة ، فيحدث من دوران الغيم تدوير فى الريح فينزل على تلك الهيئة ٠

أما السحاب فقد أشار الى تكوينه وتحركه أمام الريح ، مما يسبب نزول الأمطار ، وقال : « ان الشمس اذا أشرقت على الماء والارض حللت من الماء أجزاء لطبقة مائية تسمى بخار ، كما حللت من الأرض أجزاء لطبقة أرضية تسمى دخانا فاذا ارتفع البخار ، والدخان فى الهواء ، ودفعهما الهواء الى الجهات ومن فوقهما برد الزمهرير ، ومن أسفلهما مادة البخار ٠٠ تداخلت أجزاء بعضهما فى بعض ، وتكون السحاب ثم أن السحاب كلما ارتفع

انضمت أجزاء البخار بعضها الى بعض حتى يصير ماكان منهـا دخانا ٠٠ وماكان بخارا ٠٠ ماء »

وبعد أن انهى القزوينى من حديثه عن السحب والرياح والرعد والبرق ــ والهاله وقوس قزح تحدث عن صيرورة البحر ، وعن أنواعها فتكلم عن البحر المحيط ، والبحر الأبيض ، وبحر الصين ، وجزائر بحر الصين وحيواناته العجيبة ، وبحر الهند وجزره المختلفة وحيواناته المتعددة ، وبحر القلزم ، وبحر الخزر ، وبحر المغرب ، وغير ذلك من البحار ٠

ثم انتقل عقب ذلك الى الكرة الأرضية فتحدث عن اختلاف آراء القدماء فيها ، وأقاليمها وأرباعها وصيرورة السهل جبلا ، وفوائد الجبال ، وتولد الأنهار ، وخواصها ، وانفجار العيون والآبار ثم النظر فى الكائنات ، والبحث فى « الفلزات » والأحجار والاجسام الدهنية ٠

وأسار القزوينى الى حكمة وجود الجبال والأودية والانهار فى خلق « السفليات » : فالجبال الشامخات كأوتار لها ، يمنعونها من أن تميد والبحار العظيمة خلجات من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى أن المكشوف من البوادى والجبال ــ بالاضافة الى الماء ــ كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم ، وبقية الارض مستورة بالماء ٠

وذكر القزوينى جملة من الأنهار ومن بينها نهر النيل الذى قال عنه : « ليس فى الدنيا نهر يصب من الجنوب الى الشمال ، ويمد فى شدة الحر حين تنقص الأنهار كلها ، ويزيد بترتيب وينقص بترتيب ٠٠ غيره »

وقد حدد القزوينى طول النيل بمسيرة شهر فى بلاد الاسلام، وشهرين فى بلاد النوبة ، وأربعة أشهر فى الخراب ــ ويقصد بذلك الصحراء ــ الى أن يخرج ببلاد القمر خلف خط الاستواء ٠

ومن الأنهار التى تعرض القزوينى لوصفها كذلك : نهر أذربيجان ، ونهر جيحون ، ونهر دجلة ، ونهر الفرات ، ونهر أصفهان ، وغيرها • كما تعرض للعيون والآبار : كعين نهاوند ، وعين رأس الناعور بشرق الموصل ، وعين غرناطة فى الأندلس ، وعين هرماس بالقرب من نصيبين وغيرها ، وبئر بابل ، وبئر أبى كنود بطرابلس ، وبئر برهوت بحضرموت وبئر قنصورة بأرض الهند ، وغيرها •

ويدل أسلوبه فى العرض على ثقافته الواسعة ، وادراكه الشامل •• لولا أنه أحيانا يخلط الحقائق بالأوهام ، والوقائع بالخيال ، ولعل هذا يرجع الى أنه سجل أوصافه لمواضع لم تطأها قدماه بل سمع عنها سماعا •

ومن أطرف الأشياء التى تناولها القزوينى فى كتابه « عجائب المخلوقات » الأحجار والفلزات وقد ذكر أن الذهب الأسود لايتولد الا فى البرارى الرملية والجبال والأحجار المختلطة بالتراب ، والندى والكبريت لايتكون الا فى الأراضى الندية ، والتراب الندى والرطوبات الدهنية ، والأملاح لاتنعقد الا فى الأرض السبخة والأسفيداج لاينعقد الا فى الأرض الرملية المختلط ترابها بالجص • أما « الشب » فلا يتكون الا فى التراب العفص الجاف •

والطريف أن القزوينى تنبه الى وجود الفلزات وخصص من كتابه فصلا للحديث عنها ، وقال أنها الأجساد السبعة التى تتولد من اختلاط الزئبق والكبريت •

فان كان الزئبق والكبريت صافيين ، واختلطا اختلاطا تاما ، وشرب الكبريت رطوبة الزئبق كما تشرب الأرض نداوة الماء •• انعقد مع طول الزمن الذهب الابريز • وان كان الزئبق والكبريت صافيين ، وانطبخا انطباخا تاما ، وكان الكبريت مع ذلك أبيض

.. تولدت الفضة . وان أصابه قبل النضج برد عاقد ، تولد « الخارصين » ٠

وان كان الزئبق والكبريت رديئين ، وكان الزئبق متحللا أرضيا ، والكبريت رديئا ٠٠ تولد الحديد ٠ وان كان الزئبق والكبريت رديئين ، وكانا مع رداءتهما ضعيفى التركيب ٠٠ تولد الأسرب

وقد ذكر القزوينى أن الفلزات سبعة فقط فى حين أنها أكثر من ذلك ٠ وعلى أية حال فان الجهود التى قام بها القزوينى للتفريق بين الفلزات وغير الفلزات جهود تشهد باجتهاده الشخصى ، وقراءاته المتصلة فى هذا الميدان ، كما أن محاولة تفريقه بين الأحجار المختلفة والمعادن فى الأرض وتبيان مواضعها تشهد على محاولات جيولوجية فريدة كان لها أكبر الأثر فى نهضة العلوم عند العرب ٠

والعجيب أن القزوينى تناول « النفط » فى كتابه وقال انه يطفو على الماء ، ومنه أسود ومنه أبيض وقد يصاعد الأسود بالقرع والانبق فيصير أبيض ينفع من أوجاع المفاصل والفالج وبياض العين والماء النازل فيها ، كما وصف شرب النفط فى بعض الأحوال المرضية مثل المغص والديدان المعوية ، واخراج الأجنة الموتى من بطون الحوامل ، وقال أنه ربما يتوقد من غير نار بل بمجرد تحريكه ٠

وقد تنبه القزوينى فى كتبه الى العلاقات الموجودة بين العلويات والسفليات ، فأشار مثلا الى العلاقة بين ضوء القمر والنبات ، وقال أن الفواكه اذا وقع عليها ضوء القمر أعطاها لونا عجيبا من حمرة أو صفرة فالتى يقع عليها الضوء فى النصف الأول من الشهر أحسن لونا مما يقع عليها فى النصف الأخير ومنها أن نبات

القصب والكتان اذا وقع عليه ضوء القمر فى النصف الأول يكون أكثر تفطعا مما لو وقع عليه آخر الشهر •

وهذه الاشارات تحتاج الى بحث طويل من العلماء الزراعيين ، وذهب بعضهم الى صحتها • وهى على أية حال تشهد على ملكة الاستقراء التى حاول القزوينى أن يستخدمها فى آرائه ، فحالفه التوفيق حينا ، وخانه حينا آخر •

بيد أن حديثه عن النبات والحيوان يشهد على محاولته لدراسة علم التاريخ الطبيعى ، والأحياء فهو يتكلم عن الشجر بأنواعه ، ويتعرض لاشجار الابنوس والآس والبلوط والتوت والتين والجميز والتفاح ويتنقل بين اشجار السرو والصنوبر والزيتون والسفرجل والفلفل والفستق والموز والنارنج وغيرها

كما نجده يتحدث كذلك عن الجزر الخردل والخيار والترمس والثوم والعدس والحمص والباذنجان ويتعرض للفجل والكرات والكرفس والكزبرة وغيرها ، ويتحدث عن النرجس والنسرين والورد والورس والناردين وما اليها : حديث العالم الباحث ، لاحديث الشاعر ولا الأديب •

واذا انتهى من ذلك تعرض للحديث عن الانسان وفرق بينه وبين الحيوان ، وشرح أعضاءه عضوا عضوا ، فتكلم عن الغضروف والعصب والرباط واللحم والشحم والشرايين والأوردة والجلد وغير ذلك من الأعضاء المتشابهة ، ثم تعرض عقب ذلك للأعضاء المركبة ، ومنها الرأس والعين والآذان والأنف والشفة والفم واللسان والأسنان ، والشعر والعنق الصدر ، واليد والظفر ، والبطن والظهر والجنب والرجل ، ثم توغل فى حديثه الى الأعضاء الباطنية . فوصف الدماغ والرئة والقلب والكبد والمرارة والطحال والمعدة والكلية والمثانة •

وحاول أن يتوغل فى أغوار النفس الانسانية فتكلم عن القوى الباطنة والقوة المصورة ، والقوى المدركة والقوى الغضبية ، والقوى العقلية ، وتفاوت الناس فى العقل . ولما انتهى القزوينى من هذا الحديث – أو من هذه المحاولات العظيمة فى ميادين التاريخ الطبيعى ، والطب والتشريح ، وعلم النفس تناول بالوصف الحيوانات التى رآها أو سمع عنها كالسباع وابن آوى ، وابن عرس ، والأرنب ، والثعلب والخنزير والدب ، والسنور ، والسنجاب ، والضبع ، والفيل ، والقرد ، والكلب ، والنمر ، والكركدن وغيرها ، ثم تعرض للطير فتكلم عن الباشق ، وأبى براقش ، والبازى ، والأوز ، والبوم ، والبلبل ، والحمام والديك ، والدجاج والشاهين ، والصقر ، والعصفور ، والعقاب والقمرى والكركى ، والكروان ، والهدهد والوطواط .

ثم تعرض القزوينى بعد ذلك للهوام والحشرات فتكلم عن الأرضة ، والأفعى ، والثعبان ، والجراد وديك الجن ، والذباب ، والزنبور ، والسلحفاة ، والصرصور ، والضب ، والعنكبوت ، والفأر ، والقمل ، والنحل ، والنمل وغير ذلك . ومما قاله فى وصف الفيل : « حيوان ظريف بهى نبيل ، من أعظم الحيوانات . وربما كان فى فمها ثلثمائة سن وهو أظرف وألطف من كل حيوان .. خفيف الجسم ، رشيق ، صنع الله فى خلقته عجائب قدرته ، وهو أن رقبته لما كانت قصيرة خلق لها خرطوما طويلا يقوم مقامها يرفع العلف والماء الى فمه بها ، وتدور على جميع بدنه كما تدور يد الانسان ويضرب بها ، وله أذنان كبيرتان كل واحدة على شكل يدين متحركتين وانما يدفع بها الذباب والبق عن فمه ، فان فمه مفتوح دائما فلو دخل شىء من البق أو الذباب الى فمه اهلك .

ومما قاله فى وصف الزرافة : « رأسها كرأس الابل وقرنها كقرن البقر ، وجلدها كالنمر ، وقوائمها كالبعير ، وأظلافها كالبقر

طويلة اليدين ، قصيرة الرجلين ، وجلدها بالبقر أقرب وأشبه وذنبها كذنب الظباء . »

ومما قاله فى وصف البوم : « طائر معروف لايبرز بالنهار لضعف بصره ويحب الوحدة ، وتتشاءم الناس به ، والحيات والأفاعى تهرب من صوته ، وتصطاد السنانير الضعاف ، ويعادى الغراب . وهو ذليل بالنهار أما بالليل فلا يقدر عليه شىء من الطيور » .

ومما قاله فى وصف الشاهين : « طير من جوارح الطير ، عدو الحمام : اذا رآه الحمام يعتريه مايعترى الشاة من الذئب ، والفار من الهرة . والحمام أسرع طيرانا منه الا أنه اذا رآه يضعف عن الطيران ، واذا رأته السلحفاة تتقنع وتعطيه ظهرها ، وقد يحملها الشاهين ويصعد بها نحو السماء ويرميها على حجر صلد لتكسر فيأكلها » .

ومن العجيب أن القزوينى فى كتابه أشار الى طرق الطهى مما نطلق عليه اليوم علم « التدبير المنزلى » فقال : « ان الدجاجة البيضاء تطبخ بعشر بصلات ، وكف سمسم مقشر حتى تتهرى ، ويؤكل لحمها ويحتسى مرقها ، فانه يزيدفى الباه ، ويقوى الشهوة ، بيد أنه لايلبث أن يحذر الناس من الافراط فى تناول الدجاج لأن الافراط فيه يورث البواسير والنقرس .

ولا يغرب عن الذهن أن هذه المعلومات قاصرة ويخالطها كثير من الباطل بيد أنها كانت فى عصره فتحا جديدا فى هذه الألوان من المعرفة الانسانية .

قال فى وصف دود القز ، وهى من الحشرات التى تناولها القزوينى فى هذا القسم : دويبة اذا شبعت من الرعى ، طلبت مواضعها من الأشجار ، والشوك ، ومدت لعابها خيوطا رقاقا ،

ونسجت على نفسها كنا منل الكيس ليكون حرزا لها من الحر والبرد والرياح والأمطار .

وقال في وصف العقرب : « وأخبث الهوام العقارب ، يلدغ كل شيء يلقاه . عينها على بطنها ، ولدها يخرج من ظهرها ، فاذا ولدت ماتت ، واذا لسعت هربت ولم تقف . والعقرب اذا خرجت من بيتها أول الليل ولها نشاط .. أى شيء لقيته ضربته » .

والملاحظ أن القزويني استمد اسم كتابه « عجائب المخلوقات» من هذه المخلوقات جميعا ، لأنه اعتبر كل واحد منها عجيبة من العجائب ، وغريبة من الغرائب ، وكل مخلوق يترك في النفس حيرة عظيمة ويخلف عجبا شديدا

وقد ضرب الأمثلة في مقدمة كتابه بخلية النحل التى يعجب منها كل من يشاهدها ، اذ كيف يقوم هذا « الحيوان الضعيف يعمل هذه المسدسات المتساوية والأضلاع التى يعجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة على حد تعبيره ؟ ومن أين لها هذا الشمع الذى اتخذت منه بيوتها المتساوية التى لايخالف بعضها بعضا كأنها أفرغت في قالب واحد ؟ ومن أين لها هذا العسل الذى أودعته فيها ذخيرة للشتاء يأتيها ، وأنها تفقد فيه الغذاء ؟ وكيف اهتدت الى تغطية خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطا بالعسل من جميع جوانبه فلا يجففه الهواء ولا يصيبه الفأر .

وهذا العجب لايدرك القزويني من المخلوقات السفلية أو السفليات فحسب ، انما يبدأ من المخلوقات العلوية أو العلويات أيضا ، فالقمر يكتسب النور من الشمس لينوب عنها بالليل ، ثم هو يمتلىء ويكون محاقا ، ويدرك الشمس الكسوف كما يدرك القمر الخسوف . كما أن عجائب السموات لايستطيع الانسان أن يحصى عشر عشرها . فهذا هو السبب الذى من أجله أطلق القزويني على

كتابه « عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات » وهو أهم كتاب ألفه القزوينى ، وبه يعرف عند العلماء والمؤرخين .

وقد طبع هذا الكتاب على هامش كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للأستاذ العلامة والقدوة الفهامة والشيخ كمال الدين الدميرى » عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩٣ م) وطبعة أخرى عام ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م وطبع طبعة ثالثة عام ١٩٥٤ م وترجم الى الفارسية وأضيفت اليه بعض الصور الملونة ، وطبع فى لكناو عام ١٢٨٣ هـ ، كما ترجم الى الالمانية وطبع فى مدينة ليبزج عام ١٨٦٨ وترجم بعضه الى الفرنسية وطبع فى باريس عام ١٨٠٥ ، وترجم كذلك الى اللغة التركية ونشربها . وقد اهتم به المستشرق الكبير « وستنفلد» وكتب له مقدمة نشرت مع الكتاب عام ١٨٤٨ م . واختصر الكتاب « الباكوى » المتوفى عام ٨٠٦ هـ ١٤٠٤ م وأطلق عليه « الآثار عن عجائب المخلوقات » ومنه نسخة خطية فى باريس ونسخة بدار الكتب المصرية .

وللقزوينى كتاب آخر يسمى « آثار البلاد وأخبار العباد » وطبع فى جوتنجن عام ١٨٠٥ وعلى هامش كتاب « تاريخ الخلفاء » عام ١٣٠٥ هـ وهو يتناول علم الفلك وبعض الأحداث التاريخية وبعض المعلومات التى وردت فى كتابه « عجائب المخلوقات »

وذكر الأب لويس شيخو أنه وقف فى حلب على كتاب فى تاريخ مصر وخططها يشبه الى حد بعيد خطط المقريزى ، وينسب للقزوينى ، وفيه وصف شائق للقاهرة . وقد نقل الأب لويس شيخو بعض فصول الكتاب فى مجلة المشرق عام ١٩٠٥ . وجاء فى هذا الكتاب أن أحد شاهدى العيان كان بمصر فى العشر الأولى من المحرم سنة احدى وستين وأربعمائة ، فرأى خمسة وعشرين حملا موقرة كتبا محمولة الى الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى فسأل عنها فعرف أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير

ابن الموفق فى الدين ، وأن حصة الوزير أبى الفرج منها قومت عليه من جارى مماليكه وغلمانه بخمسة آلاف دينار . ونقل عن ابن أبى طى بعدما ذكر استيلاء صلاح الدين على قصر الخليفة « ومن جملة ماباعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ويقال انه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر ، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائة نسخة من كتاب الطبرانى الى غير ذلك ، ويقال أنها كانت تحتوى على ألف وستمائة ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة . أشياء كثيرة » .

ومما يؤكد ذلك أن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على لما أنشأ المدرسه الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد ، وباع ابن صور جملة منها فلو كانت كلها مائة ألف لما فضل عند القاضى منها شىء كثير ، وذكر ابن أبى واصل أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد .

وهذه الروايات جميعا تعتبر غرة بيضاء فى جبين مصر ، اذ حرصت على اقتناء الكتب المفيدة والمراجع المختلفة فى الفقه ، وسائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ ، وسير الملوك والروحانيات ، والكيمياء ، والنسخ المختلفة من المصاحف وما اليها من نفائس الكتب والمخطوطات .

وتوفى القزوينى عام ٦٨٢ هـ ١٢٨٣ م

الإدريسي

عالم جغرافي كبير ، ورحالة وجواب آفاق ، تعلم في مدينة قرطبة في الأندلس ، وأخذ عن علمائها وأغرم بالجغرافيا والطب والنجوم ، وكان الى جانب ذلك أديبا ذواقة للأدب ، يقرض الشعر وينظمه في شتى المناسبات • زار بلدانا مختلفة ، وترك لنا وصفا شائعا لمعالمها ومدنها • وطاف في القسطنطينية وآسيا الصغرى ومصر ومراكش والأندلس ، وعبر البحر الى انجلترا بعد أن زار فرنسا ثم عاد الى جزيرة صقلية حيث قابله أهلها بترحاب عظيم ، وأغدق عليه ملكها « روجر الثاني » (١١٠١ـ١١٥٤ م) المشهور في الكتب العربية باسم « رجار » هباته وعطاياه ، وأنزله في أحسن منزل ، وأخذ يستمتع بقصصه وطرائفه وأوصافه للبلدان التي زارها • واصطنع الادريسي للملك « روجر » ـ بناء على طلبه ـ كرة أرضية من الفضة ، وكتب عليها بأحرف عربية كل مكان يعرفه من البلدان المختلفة ومما يدعو الى الأسف أن هذه الكرة قد فقدت بعد ذلك ، ولولا فقدها لزاد فهم المؤرخين لقيمة المعارف الجغرافية في القرن الثاني عشر الميلادي زيادة عظيمة •

وقد سجل الادريسي ماشاهده في كتاب أطلق عليه « نزهة المشتاق في أخبار الآفاق » وقيل « في اختراق الآفاق » •

وكان هذا الكتاب عونا للجغرافيين في توسيع معارفهم العامة ، كما كان عونا للمستكشفين البرتغاليين في القرن الخامس عشر على ارتياد الأماكن المجهولة •

وقد قسم الادريسى الأرض الى سبعة أقاليم أو منـــاطق ، ثم قسم كلا من هذه الأقاليم أو المناطق الى أحد عشر قطرا ، وأورد أوصاف البلاد والممالك ، وقاس أبعادها بالميل والفرسخ غير أنه لم يفكر فى خطوط الطول والعرض ٠

وكان مما وصف به نهر النيل فى بلاد النوبة ميل واحـــد وعرضه فى قبالة مصر ثلث ميل ٠ وفى البطيحات الصغار وما بعدها من النيل الحيوان المسمى بالتمساح ، وفيها أيضا الحوت المسمى بالخنزير وهو ذو خرطوم ، أكبر من الجاموس ، ويخرج الى الجهات المجاورة الى النيل فيأكل بها الزرع ويرجع الى النيل ٠ وفى النيل المذكور سمكة مدورة حمراء الذنب يقال لها « اللاش » لاتظهر به الا ندرة وهى كثيرة اللحم طيبة الطعم ٠ وفيه أيضا سمك يسمى « الابرميس » وهو حوت أبيض مدور أحمر الذنب ويقال أنه ملك السمك ٠ وهو طيب الطعم لذيذ ، يؤكل طريا ومملوحا » ٠

وهكذا يمضى الادريسى يصف أنواع السمك الموجودة فى هذه المنطقة كأنما هو خبير بأنواعها وأجناسها ٠ وليس من شك فى أن هذا الوصف كان له أبعد الأثر فى تقويم الثروة السمكية الموجودة فى هذه المناطق ٠ كما كان للادريسى فضل كبير فى توضيح قيمة الثروة الاقتصادية الكائنة هناك ٠

ويقول عن الفواكه فى السودان : « وليس فى بلاد السودان شىء من الفواكه الرطبة الا مايجلب اليها من التمر من بلاد سلجماسه أو بلاد الزاب ٠ والنيل يجرى فى هـــذه الأرض من الشرق الى الغرب ، وينبت على ضفتيه القصب الشركسى ، وشجر الأبنوس ، والشمشار ، وبها تقيل وتسكن مواشيهم ، واليهـــا يميلون ويستظلون عند شدة الحر وحمية القيظ ٠ وفى غياضـه الأســد والزرائف والغزلان والضبعان ، والأفيال ، والأرانب ، والقنافذ » ٠

وهكذا يصور لنا الادريسى فى هذه الفقرة الثروة الحيوانية فى هذه المنطقة من الأرض · صحيح أن كثيرا من الأراضى البور استصلحت فى السودان ، وصحيح أن الزراعة زحفت الى كثير من المناطق والى مساحات واسعة من الأرض الخلاء ، وصحيح أن أنواعا مختلفة من الفواكه زرعت فى هذه المناطق ، وجلبت بذورها من الخارج ، أو امتدت الى أماكن لم تكن ممتدة اليها من قبل ، وصحيح أن بعض الحيوانات فرت من أماكن الغابات نتيجة لاجتثاثها ·· ولكن وصف الادريسى — مع هذا كله يصور الحياة كما كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى قبل أن تمتد يد الاصلاح الى السودان ·

وقال الادريسى فى وصف مدينة الفيوم : « والفيوم مدينة كبيرة ذات بساتين وأشجار وفواكه وغلات · ولها جانبان على وادى اللاهون وهو فيما يقال أن يوسف عليه السلام اتخذ له مجريين للماء فى وقت الفيض ليدوم لهم الماء فيهما ، وقومهما بالحجارة المنضدة · ومدينة الفيوم فى ذاتها مدينة طيبة كثيرة الفواكه والغلات ، وأكثر غلاتها الأرز ، وهو الأكثر فى سائر حبوبها وهواؤها وبىء غير موافق ، منكر لمن دخلها من الطارئين »

ولست أدرى ما الذى دفع الادريسى ليصف هواء الفيوم بأنه وبىء ، مع أن هواءها جميل ولعل ذلك يرجع الى ماوجده فى الفترة التى نزل فيها الادريسى مدينة الفيوم ·· فلعل الريح العاصفة الآتية من الصحراء هى التى استقبلته عند وصوله اليها ، فوصف هواءها بأنه وبىء · وقل مثل ذلك بالقياس الى وصفه للأحوال المناخية فى بعض مدن السوذان ، فهو يقول أن السماء لاتمطر فى بعض المدن ·· على حين أن المطر غزير فى هذه المناطق · وهو يقول أن أهلها ينتظرون فيض النيل وليس لهم من الله رحمة ولا غياث الا فيض النيل ·· فى الوقت الذى اشتهرت به هذه المناطق بغزارة المطر ، وهطول الغيث ·

كما أنه غمط بعض أهالى أفريقيا حقهم ، وصورهم فى صورة مزرية ٠٠ « فالمرأة لاترى الا ويتبعها أربعة أولاد أو خمسة ، وهم فى ذاتهم كالبهائم لايبالون بشيء من أمور الدنيا الا بما كان من لقمة أو ٠٠ »

ونلمح فى كتاب الادريسى ملامح واضحة للجغرافيا البشرية وعادات الأهالى ، وتقاليدهم الاجتماعية وملابسهم وأزيائهم ٠٠ فيقول فى وصف أهل المغرب الأقصى : « أهلها يلبسون المقندرات من الصوف ، ويربطون على رؤوسهم كرازى الصوف ويتلثمون بفواضلها ، ويسترون أفواههم ـ وهى عادة من عوائدهم توارثها الأبناء على الآباء ، ولم ينتقلوا عنها ، ولم يتحولوا منها » ٠

وقد وصف الادريسى فى رحلاته شتى مدن الأندلس ، وألقى أضواء على ماعبره من جزر أو طاف به من مدن ٠ وعندما وصل الى قرطاجنة ألفاها مدينة قديمة « أزلية » لها مرسى ترسو عنده المراكب الصغيرة والكبيرة ، ووجدها كثيرة الخصب والرخاء ، ولها اقليم يسمى « الفندون » قلما يوجد مثله فى الخصوبة والجودة ، ويحكى أن الزرع فيه يثمر بسقى مطرة واحدة ، واليه المنتهى فى الجودة ٠ ووصف الادريسى الأنهار التى تشق أرض الأندلس وصفا شائقا ، كما صور الحياة فى وديان هذه الأنهار والأسواق الموجودة فيها ، والمعادن الدفينة فى أرضها ، وألوان المتاجر التى تعبر البحر الى شتى الأقطار والأمصار ، والستور والثياب وأنواع الحرير وصنوف النحاس والحديد وغيرها مما تحمله السفن من الموانى المختلفة ٠

كما وصف الادريسى القصور الموجودة فى الأندلس ، والقلاع والحصون ، وعرج على ذكر تواريخها ، ومنها تلك الحصون التى كان يسكنها البربر فى عهد الأمويين ٠

ومن طريف ماوصف به الادريسى أهل برقة أن ثيابهم حمراء دائما ، وبذلك يعرف أهلها فى سائر البلاد المحيطة بها والصادر عنها والوارد اليها ومن الطريف كذلك قوله أن أرضها تمتاز بزراعة القطن الذى لا يجانسه صنف من أصناف القطن ، كما أن تربتها ينتفع بها فى علاج بعض الأمراض .. اذ تعجن مع الزيت وتستخدم فى علاج الجرب والحكة !

قد يكون فى هذا القول بعض الأغاليط ولذلك كان لابد لنا عندما نقرأ كتب الادريسى أن نتحفظ فيما رواه من قصص وحكايات وأوصاف .

وظلت هذه السمة تتمثل فى شتى رحلاته ومنها رحلته الى أوربا التى صورها فى كتابه هذا « نزهة المشتاق فى أخبار الآفاق » الا أنه وفق أحيانا فى وصف البيئة الجغرافية للبلاد التى زارها فقال مثلا فى وصف مدينة « جنوة » فى ايطاليا :

« مدينة قديمة أزلية البناء ، حسنة الجنبات والأفناء ، بنيانها شاهق السمو . وهى وافرة الثمر ، كثيرة المزارع والقرى والعمارات . وهى على قرب نهر صغير ، وأهلها تجار أملياء مياسير ، يسافرون برا وبحرا ، ويقتحمون سهلا ووعرا ، ولهم أسطول مخيف ، ولهم معرفة بالحيل الحربية ، والآلات السلطانية ولهم بين الروم عزة نفس » .

وقال فى وصف روما :« ومدينة رومة مدينة عظيمة الدور ، يذكر أن محيطها تسعة أميال ، ولها سوران من حجارة ، وعرض السور الداخلى اثنا عشر ذراعا ، وسمكه اثنان وسبعون ذراعا ، وعرض السور الخارج ثمانية أذرع ، وسمكه اثنان وأربعون ذراعا ، وفيما بين السورين نهر مغطى ببلاطات نحاس طول البلاطة منها ستة وأربعون ذراعا . وسوقها معترض مابين الباب الشرقى الى الباب الغربى . وهناك اسطوانات حجر فى نهاية من الغلظ ، طول

كل عمود منها ثلاثون ذراعا ٠ ومما يلي جانبي العمود الأوسط منها عمودان من نحاس أصفر رومي ، وقصبة العمود وقاعدته ورأسه مفرغ فيه ، وعليها حوانيت تجار ، وفي مقدم هذه الاسطوانات والحوانيت نهر يشقها من المشرق الى المغرب ، قاعة كلها مفروش ببلاط النحاس (يقصد صفائح النحاس) ، ولا يستقر به شيء يرسى فيه ٠ وبهذا النهر تؤرخ الروم فنقول : من تاريخ عام الصفر (هو نهر التير على بعد ١٥ ميلا من البحر)٠ والمراكب تدخل الى مدينة رومة على هذا النهر بأوساقها فتأتى المراكب بما فيها حتى تقف على حوانيت التجار ٠ وفى داخل المدينة كنيسة عظيمة بنيت على اسم بطرس وبولس الحواريين ٠٠ وهما فيها فى قبرين » ٠

ويأخذ الادريسي بعد ذلك في وصف هذه الكنيسة وصفا دقيقا : « فطولها ثلاثمائة ذراع وعرضها مائتا ذراع ، وارتفاع سمكها مائة ذراع وأركانها من نحاس مفرغ ، وسمكها كذلك مغطى بالنحاس الأصفر » ٠

ومما اعتبره موضحا لشخصية روما وجود ألف ومائتي كنيسة بها ، وأسواقها وشوارعها مفروشة بالرخام الأبيض والأزرق ، وفيها ألف حمام ، وفيها كنيسة جليلة البناء بنيت على صفة كنيسة بيت المقدس طولا وعرضا ، وفيها مذبح تقرب عليه القربان طوله عشرة أذرع ، وظهره كله مرصع بالزمرد الأخضر ، ويحمل هذا المذبح اثنا عشر تمثالا من ذهب ابريز ، طول التمثال منها ذراعان ونصف ذراع ، وأعينها يواقيت حمر ، ولهذه الكنيسة أبواب مصفحة بالذهب والابريز ، غير مالها من الأبواب الخارجة المصفحة بصفائح النحاس وأبواب الخشب المنقوش ٠

ومما استرعى نظر الادريسي فى روما وجود قصر الملك المسمى « البابة » (البابا) وليس هناك قصر يعلى عليه ، والملوك يقيمونه مقام الباري جل وعز ، يحكم بالحق ، ويتحرى المظالم ، ويرفق

بالضعفاء والمساكين ، وينفى الضيم عن المنهضمين ، وحكمه نافذ ماض على جميع ملوك الروم ، ولا يقدر أحد منهم أن يرد عليه .

وهكذا استطاع الادريسى أن يدرك مـــدى تأثير الدين فى الرعية فى أوروبا ، كما استطاع أن يدرك مدى نفوذ البـــابا فى هذا العصر ، ومدى خشية الملوك والأباطرة من سلطانه ، وسعيهم الى خطب وده ، وتملقه .

ومضى الادريسى بعد ذلك يصف مدن ايطاليا بلدا بلـــدا ، ثم مضى بصف مدن فرنسا وانجلترا بيد أن الشىء الملاحظ فى كتابات الادريسى كثرة أسماء المدن التى تغيرت فى الجغرافيا الحديثـــة حتى أن القارىء المتخصص يحتاج الى كثير من الجهد والعناء فى التعرف على البلاد التى كانت تحمل الأسماء .. فما بالك بالقارىء العادى !

وضم كتاب الادريسى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » بعض المعلومات الجغرافية المتصلة بالجغرافية الفلكية ، كقوله : « .. ان الأرض مدورة كتدوير الكرة ، والماء لاصق بها وراكد عليها ركودا طبيعيا لايفارقها ، والأرض والماء مستقران فى جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة ووضعهما وضع متوسط ، والنسيم محيط بهما من جميع جهاتهما ، وهو جاذب لهما الى جهة الفلك أو دافع لهما .. والله أعلم بحقيقة ذلك .

« والأرض مستقرة فى جوف الفلك ــ وذلك لشدة سرعـــة حركة الفلك ــ وجميع المخلوقات على ظهرها ، والنسيم جاذب لما فى أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما فى أبدانهم من الثقـــل بمنزلة حجر المغنطيس الذى يجذب الحديد اليه » .

كتب الادريسى هذا فى القرن الثانى عشر الميلادى . ولعل خير مايلقى الضوء على فضله أن نثبت تاريخه مع تواريخ من سبقهم فى ميادينهم من علماء الغرب .

الادريسى : ولد عام ١٠٩٩ ، ومات عام ١١٨٠

كبر نيق : ولد عام ١٤٧٣ ، ومات عام ١٥٤٣

كيلر : ولد عام ١٥٧١ ، ومات عام ١٦٣٠

نيوتن : ولد عام ١٦٤٢ ، ومات عام ١٧٢٧

والارض فى نظر الادريسى مقسمة قسمين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق الى المغرب وهذا هو طول الأرض وهو أكبر خط فى الكرة ، كما أن منطقة البروج أكبر خط فى الفلك ، وامتدادة الكرة فى موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخا ، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع أربعة وعشرون أصبعا ، والأصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصقة بطون بعضها لظهور بعض ٠

ويقسم الادريسى الأرض بعد ذلك الى سبعة أقاليم ، وتخترق هذه الأقاليم السبعة سبعة أبحر يسميها خلجانا ، ستة منها متصلة ، وبحر واحد منفصل لايتصل بشىء من البحور المذكورة ٠

وأحد هذه البحور التى فى الأرض المعمورة هو بحر الصين والهند والسند واليمن، ومبدؤه من جهة المشرق فوق خط الاستواء الى جهة المغرب ، فيمر بالصين أولا ثم بالهند ثم بالسند ثم باليمن على جنوبها وينتهى الى باب المندب ٠

وليس من شك أن فهم الادريس للتضاريس ، وتمييزه بين البحار ، كان قاصرا ، بيد أنه كان متأثرا بالمعارف الموجودة فى هذه الفترة من التاريخ ٠

وهكذا استطعنا أن نضع أيدينا فى كتاب الادريسى على كثير من المعلومات فى الجغرافية الفلكية والطبيعية والاقتصادية ، كما ظهرت فى كتابه لمحات عن النظم الاجتماعية عند مختلف الجماعات

والأقوام ، وذلك من حيث توزيعها ، وعلاقتها بالبيئة ، ثم علاقة بعضها ببعض ، أو مايسمى بالجغرافيا الاجتماعية .

كما ظهرت فى كتاب الادريسى تلك الصلة بين الجغرافيا الاقتصادية ، حيث أن هنالك صلة وثيقة بين نوع الانتاج ونوع العمل الذى تقوم به الجماعة .

ولا يخلو كتاب الادريسى من لمحات لتوزيع الأجناس البشرية على سطح الأرض ، وعلاقة ذلك التوزيع بالمناطق المختلفة ، وهو ما يعرف عند علماء الجغرافيا المحدثين بالجغرافيا الجنسية .

وهناك اشارات مختلفة الى نظم الحكم السائدة فى بعض المناطق مما يعد محاولة أولى لدراسة الجغرافيا السياسية .

بيد أن الادريسى يستحق كل أعجاب وتقدير ، اذ استطاع — مع مافى كتابه من أخطاء جغرافية — أن يضع أمام من أتوا بعده من الجغرافيين أساسا للبناء .

وقد وجدت من كتابه نسخة خطية بمكتبة باريس عام ١٨٢٠ ، فترجمها « جوبرت » الى اللغة الفرنسية ونشرت بين عامى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ ، وقد ترجمه يوحنا الحصرونى وجبرائيل الصهيونى الى اللغة اللاتينية ونشراه مع النسخة العربية . وهاتان النسختان المنشورتان اختصار لنسخة موجودةفى مكتبة الاسكوريال بأسبانيا وقد طبعت ترجمة الحصرونى وجبرائيل فى باريس .

ونشر الأستاذان دوزىودى غويه مختصرا للكتابأطلقاعليه«صفة المغرب والسودان » وطبع قسم من الكتاب فى « بانورمى » عام ١٧٩٠ ، ومنه « ذكر الأندلس » تأليف شريف الادريسى « كذا » ومعه ترجمة أسبانية بقلم المستشرق كوندى عام ١٧٩٩ .

وطبع الكتاب أيضا فى مدريد عام ١٨٨١ ومعه ترجمة أسبانية للاستاذ سافدرا وترجم اميدى جوبار الى الفرنسية جغرافية

الشريف الادريسى عن النسخة الموجودة فى مكتبة باريس وطبعها بين عامى ١٨٧٧ و ١٨٧٩ ، ومنه جزء يشتمل على مقدمة وصفه البلاد التى هى الآن مملكة ايطاليا ، ومعها ترجمة ايطالية وشروح وتعليقات بقلم امارى وشيابارلى .

وطبع الكتاب فى مدينة ليبزج عام ١٨٢٨ على وجه التقريب مرة أخرى ، وقام بطبعه العالم روزون ملر .

وذكر المؤرخ الكبير المرحوم أحمد زكى «باشا» فى مقال له نشره بجريدة المؤيد فى ٦ فبراير عام ١٩١٢ أنه تمكن من العثور على أربع نسخ خطية من هذا الكتاب ، ولم يكن فى دار الكتب الخديوية منه الا الجزء الأول مكتوبا بخط جميل ومتضمنا للمصورات الجغرافية (الخرائط) ، غير أنه طرأ عليه تشويه وتحريف كبير قلل من قيمتها العلمية .

وجاء فى مقدمة هذه النسخ التى عثر عليها أحمد زكى باشا أن الادريسى ألف هذا الكتاب مصورا لأشكال الكرة الأرضية وصورها ، وزاد عليها بوصف الأحوال والأرضية : فى خلقها وبقاعها . وأماكنها وصورها ، وبحارها وجبالها وأنهارها ، ومزروعاتها وغلاتها ، واجناس بنائها وضواحيها والاستعمالات التى تستعمل بها ، والصناعات التى تنفق فيها ، والتجارات التى تجلب اليها وتحمل عنها ، والعجائب التى تذكر عنها وتنسب اليها .

أما « الكرة الأرضية » التى قام الادريسى بصنعها للملك روجر فانها كانت عظيمة الجرم ضخمة الحجم ، فى وزن أربعمائة رطل رومى ، فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما . وقال الادريسى أنها تضمنت صور الأقاليم ببلادها وأقطارها ، وسيفها وريفها ، وخلجاتها ومجارى مياهها ، ومواقع أنهارها ، وعامرها وغامرها ، والطرقات ، والأميال ، والمسافات ، والمشاهد ..

أما الملك روجر نفسه الذى كلفه وضع هذا الكتاب ، وقدم اليه الادريسى هذه الكرة ، فهـــو « رجار المعتز بالله ، المقتـــدر بقدرته • ملك صقلية وايطاليا وانكبروه (لومبارديا) وقـــلوريه (كالابريا) مقر امام رومية الناصر للملة النصرانية اذ هو خير من ملك الروم بسطا وقبضا ، وصرف الأمور على ارادته ابراما ونقضا، ودان فى ملته بدين العدل ، واشتمل عليهـــم بكنف التطـول والفضل ، وقام بأسباب مملكته خير قيام ، وأجرى سنن دولته على أفضل نظام وأجمل التئام ، وافتتح البلاد شرقا وغربا ، وأذل رقاب الجبابرة من أهل ملته بعدا وقربا » •

ولما اتسعت أعمال مملكته أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينا وخبرة ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا ، وفى أى اقليم هى مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار وطلب مافىالكتب المؤلفة فى هذا الفن ــ مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى وكتاب أبى القاسم عبيدابن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلىالبغدادى، وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكى ، وكتاب موسى بن قاسم الفردى وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطليموس القالوذى ، وكتـــاب أرسيوس الأنطاكى •• الخ ــ فلم يجد ذلك فيها مشروحا مستوعبا مفصلا •• فأحضر اليه العارفين بهذا الشأن ، فلم يجد عندهم أكثر مما فى الكتب المذكورة ، فلما رآهم على مثل هذه الحال ، بعث الى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها •

وقد شفى الادريسى غليل الملك « روجر » بتأليف هذا الكتاب وبلغ من اكرامه له أنه كان كلما دخل عليه هرع لاستقباله عنـد الباب ، وأجلسه الى جانب سرير الملك • حتى اذا ماتم المحاضرات معه ، وأفاده بما أراد ، ثم هم بالخروج •• شيعه الملك بنفســه الى عتبة القصر ••

وقد كان هذا الملك أحد الملوك النورماندبين الذين نهضـــوا بتشجيع العلماء من العرب وبمساعدة المترجمين الذين تولوا نقل الآثار العربية الى اللاتينية ، تلك الآثار التى استطاع العرب فى أثناء الأعوام المائة والثلاثين التى حكموا فيها جزيرة صـــقليه أن ينشروها بين أهل الجزيرة ، ويغرسوا شجرة المعرفة فى أرض خصبة ظل أثرها جنبا حتى بعد أن استولى النورمانـــديون على الجزيرة عام ١٠٩١ م .

ابن جبير

رحالة مشهور ، واسمه أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير ابن سعيد الكنانى الأندلسى ولد بمدينة « بلنسيه » فى ١٠ من ربيع الاول عام ٥٤٠ هـ (أول سبتمبر عام ١١٤٥ م) واجتهد فى تحصيل العلوم حتى أصبح أديبا مجيدا ، وكان ذا حس مرهف ، يقرض الشعر فى شتى الأغراض ولا سيما الحكمة وتجارب الزمان .

ولم يقم ابن جبير برحلة واحدة ، بل قام بثلاث رحلات . فقيل : « رحل ثلاثا من الأندلس الى المشرق ، وحج فى كل واحدة منها . فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال عام ٥٧٨ هـ (٤ من فبراير سنة ١١٨٣ م) وصنف الرحلة المشهورة . ولما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس قوى عزمه على أعمال الرحلة الثانية ، فتحرك اليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة ٥٨٥ هـ (٢٧ ابريل سنة ١١٨٩ م) . ثم آب الى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان عام ٥٨٧ هـ (٥ من سبتمبر ١١٩١ م) وسكن غرناطة ثم مالقه ثم سبتة ثم فاس ، منقطعا لسماع الحديث « والتصوف ، وترويه ماعنده ، ثم رحل الثالثة من سبتة » بعد موت زوجه عاتكة أم المجد بنت الوزير أبى جعفر الوقشى — وكان كلفه بها جما ، فعظم وجده عليها ، فوصل مكة ،

وجاور بها طويلا ، ثم بيت المقدس ، ثم تحول لمصر والاسكندرية فأقام يحدث ويؤخذ عنه الى أن لحق بربه » •

وكان باعثه على القيام برحلته الأولى دينيا ، ذلك أنه خرج حاجا تكفيرا عن معصية وقع فيها، فباع ملكا له تزود به ،ورحل قاصدا بيت الله •

وصاحب ابن جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن حسان ابن أحمد بن الحسن القضاعى وكان أبو جعفر متحققا بعلم الطب.

وزار ابن جبير فى رحلته مصر والشام والحجاز وصقلية ، وتفقد آثارها ، ومساجدها ، ودواوينها ، ودرس أحوالها ، وذكر ماشاهده وما كابده ، ووصف حال مصر فى عهد صلاح الدين الايوبى والمسجد الأقصى ، والجامع الأموى ، والساعة العجيبة فيه •

وقد أخذ ابن جبير بمنظر النيل الجميل • وبعد أن زار الاسكندرية توغل فى الوجه البحرى فوصل مدينة دمنهور • وهى على حد تعبيره بلد « مسور فى بسيط من الأرض فسيح » ويقصد بذلك أنها بلدة محاطة بسور تمتد فى أرض واسعة ، وتربط هذه المدينة بين الاسكندرية والقاهرة وهذا البسيط من الأرض كله « محرث » يعمه النيل بفيضه ، والقرى فيه يمينا وشمالا ، لاتحصى كثرة •

ويقول ابن جبير أنه بعد ذلك بأيام اجتاز النيل فى موضع يعرف باسم « صا » فى مركب تعديه ثم وصل الى موضع يعرف باسم « برمة » وبات فيه ، وهو قرية كبيرة فيها سوق ومرافق شتى •

ويواصل ابن جبير وصفه بعد ذلك فيصف كثيرا من القرى والمدن الواقعة على النيل ، حتى يصل الى مدينة القاهرة •

وتعرض – عند الحديث على مناقب صلاح الدين الأيوبى – لوصف الفناطر التى شرع فى بنائها فى غرب مصر وعلى مقدارسبعة أميال منها ، بعد القيام بعمل رصيف طويل ، ابتدىء به من حيز النيل بازاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض ، والقنطرة متصلة بالصحراء التى يفضى منها الى الاسكندرية • وعندما وصل الى الروضة تعرض للمقياس ، وقال انه عمود من الرخام أبيض اللون متمن الشكل ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه • وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعا مقسمة على أربعة وعشرين قسما تعرف بالأصابع • ويدرك النيل الفيضان عندما يكون مستوفيا تسع عشرة ذراعا ، وهذا القدر هو الغاية عند المصريين فى فيضان النيل وقتذاك • وقال ان الفيضان المتوسط هو ما استوفى سبع عشرة ذراعا • ويجبى الخراج ، ويعطى السلطان الأوامر لذلك ، عندما يدرك الفيضان ست عشرة ذراعا •

وعندما سافر ابن جبير الى الصعيد ، وصف المدن الواقعة على النيل وصفا دقيقا ، وصور الحياة فى هذا النهر العظيم الذى تتوقف عليه حياة أهل الوادى • وكان ابن جبير لايفتأ يذكر الخيرات السائدة على ضفاف النيل ، والأنام الذين ينتشرون بين أرجائها ، والأنعام التى تسعى على الأرض وهى تنقل الخير وتحرث الأرض ، وتدر النفع للناس •

ومما ذكره فى وصف القلعة بالاقليم المصرى قوله : « وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة ، حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة • والمسخرون فى هذا البنيان ، والمتولون لجميع امتهاناته ومئونته العظيمة – كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا فى الصخر ، عجبا من

العجائب الباقية الآثار ــ العلوج (الأعاجم) الأســـارى من الروم وعددهم لايحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك أحد سواهم ».

وقال فى وصف المارستان : « ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان المارستان الذى بمدينة « القـــاهرة » وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة تأجـــرا واحتسابا ، وعين قيما من أهل المعرفة ، وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة ، واقامتها على اختلاف أنواعهـــا . ووضعت فى مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجـــع كاملة الكسى ، وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكلفون بتفقد أحـــوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم .. وبازاء هذا الموضع ، موضع مقتطع للنساء المرضى ولهن أيضا مايكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متســـع الفناء ، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد ، اتخـــــذت محابس للمجانين . ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد فى الاعتناء بها ، والمثابرة عليها غاية التأكيد » .

ووصف الأهرام فقال : وبمقربة من هذه القنطرة المحـــدثة « الأهرام » القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر ، المربعة الشكل، كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء ، ولا سيما الاثنان منها فانهما يغص الجو بهما سموا ، فى سعة الواحد منها من أحد أركانه الى الركن الثانى ثلاثمائة خطوة وست وستون خطوة ، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة ، وركبت تركيبا هائلا ، بديع الالصاق ، دون أن يتخللها مايعين على الصاقها ، محددة الأطراف ، فى رأى العين . وربما أمكن الصعود اليها على خطر ومشقة ، فتلقى فى أطرافها المحددة كأوسع مايكون من الرحاب ، لو رام أهـــل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك » .

وأفاض ابن جبير فى وصف مشاهد أهـــل البيت رضى الله عنهم ، ومشاهد بعض أصحاب النبى – صلى الله عليه وسلم – ، ومشاهد الشريفات العلويات ، ومشاهد الأئمة والعلماء الزهاد .

وقال ابن جبير فى وصف مسهد الامام الشافعى : « وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا ، وبنى بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يخيـــل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بازائها الحمام ، الى غير ذلك من مرافقها . والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لاتحصى . تولى ذلك بنفسه الشيخ الامام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول : زد احتفالا وتألقا ، وعلينا القيام بمئونة ذلك كله .. فسبحان الذى جعل صلاح دينه كاسمه » .

ووصف ابن جبير عقب ذلك رحلته فى صعيد مصر ثم وصوله الى عيذاب والبحر الاحمر وجدة فالمسجد الحرام والبيت العتيق ، والحرم الشريف وأبوابه ، ومكة ومناحيها المختلفة ، وخيراتهـــا وثمراتها ومما قاله فى ثروتها الاقتصادية قوله :

« وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب . وقد وقع القطع من كل من نطوف على الآفاق وضرب نواحى الأقطار ، انها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا . وما ذاك – والله أعلم – الا لبركة مراعيها ، هذا على افراط سمنه ، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهى الى ذلك المنتهى فى السمن للفظته الأفواه زهما وتعافه وتجنبتــه .. والأمر فى هذا بالضد ، كلما ازداد سمنا زادت النفوس فيه رغبة والنفس له قبولا : فتجده هنيئا رخصا ، يذوب فى الفم قبل أن يلاك مضغا ، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاما » .

وقال فى وصف ما اشتهرت به مكة من رطب جنى طار صيته فى الآفاق : « ومن أغرب ما ألقيناه فاستمتعنا بأكله ، وأجرينـــا

الحديث باستطابته — ولا سيما لكوننا لم نعهـــده — الرطب وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجره ، يجنى النـــاس اليه كخروجهم الى الضيعة ، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك عندتناهى نضجه ، يبسط على الأرض قدر مايجف قليلا ، ثم يركم بعضه على بعض فى السلال والظروف ويرفع » ٠

وتعرض ابن جبير فى رحلته الى الأراضى المقدسة الى وصف حمامى مكة ، ومنع النفقة لاصلاح الحرم ، والعملة الرجبيـــة ، وقبائل السرو ، وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراه ٠ ومن طريف ماذكره عنهم قوله : « وأما صـــلاتهم فلم يذكر من مضحكات الأعراب ، أظرف منها ، وذلك أنهم يســـتقبلون البيت الكريم ، فيســـجدون دون ركوع ، وينقرون (أى يسرعون) بالسجود نقرا ٠

ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع ، ثم يرفعون رءوسهم من الأرض قليلا ، وأيديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد » ٠

وذكر ابن جبير بعد ذلك أفراد البيت للنساء الخاصـــة ، واجتماعهن به من كل صوب وحدب ، ثم غسل البيت بماء زمزم المبارك ، والاحتفال بنصف شعبان ، ثم الاحتفال بشهر الصـوم المبارك فعيد الفطر والوقوف بمنى ، وصلاة الاستقاء ، ووصـف جبل ثور الذى آوى اليه النبى — صلى الله عليه وسلم — مـع صاحبه الصديق ، فمسجد الرسول ودار خديجة رضى الله عنها ، فدار الخيزران التى كان منها منشأ الاسلام ، وهى بازاء الصفا ، ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل اليها كان مسكن بلال مؤذن

الرسول رضى الله عنه ، وبين مناسك الحج ، ومغادرة مكـــة والرحلة الى المدينة ٠

حتى اذا ما استوفى غرضه من وصف البلاد المقدسة ، رحل ابن جبير الى العراق ووصف الكوفة والحلة وعبر نهرا يســمى « النيل » ـ وهو فرع متشعب من الفرات ـ وكان عليه ازدحام مغرق كبير من الناس والدواب في الماء ٠ ثم وصــف ابن جبير بغداد مدينة السلام وذكر طرفا من معالمها ، وشيئا عن شخصياتها وعلمائها ، ومجالس شيوخها ، فمدينة تكريت وهى من المــدن العنبقة في العراق ـ فمدينة الموصل ، ووصف مســـاجدها ، وحماماتها ، وخاناتها وأسواقها ٠

ووصف ابن جبير مدينة نصيبين ، ومدينـــة دنيصر ورأس العين وحران ومنبج وبراغة وحلب وحمص وحماه ، وغـــيرها من مدن سوريا ٠

ووقف فى دمشق وقفة طويلة ٠ وأيد قول القائلين عنهـــا : « ان كانت الجنة فى الأرض فدمشق لاشك فيهـــا وان كانت فى السماء فهى بحيث تسامتها وتحاذيها » ٠ ووصف جامعها المشهور ومساحته وعدد أبوابه وشمسياته ، ووصف آثار دمشق وعادات أهلها ٠ ومن طريف ماذكره من آثارها أنها تضم بيتا صغيرا جدا قد اتخذ مصلى وفى قبلته حجر يقال ان ابراهيم عليه السلام كان يكسر عليه الآلهة التى كان يسوقها أبوه للبيع ٠ كما وصف ابن جبير مدينة بانياس وصور ، وصف زفافا تم فى هذه المدينة ، وصور حالة المسلمين أيام الحروب الصليبية ، ثم ركوبه البحـــر الأبيض المتوسط ، ووصوله الى مدينة « مسينا » فى جـــزيرة صقلية وصور حالة المسلمين فى صقلية بعد أن أفاض فى ذكر معالمها وآثارها ومساحتها : « طول هذه الجزيرة (صقلية) سبعة أيام ، وعرضها مسيرة خمسة أيام ٠ وبها جبل البركان المذكور

وهو يأتزر بالسحب لافراط سموه ، ويعتم بالثلج شتاء وصـــيفا دائما • وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف • وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهية مسحونة بالأرزاق على اختلافها، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها! . ووصف حال المسيحيين أيضا فى الجزيرة وصفا شائقا جميلا ، وصور أعيادهم الدينية تصوير شاهد عيان لا تعوزه الدقة، ولا تضيع عنه شاردة ولا واردة: « ومن أعجب ماشاهدناه كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكى • أبصرنا يوم الميلاد ــ وهو يوم عيد لهم عظيم ــ وقد احتفلوا لها رجالا ونساء ، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ، ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة • جدرها الداخلة ذهب كلها ، وفيها من ألواح الرخام الملون مالم ير مثله قط ، قد رصعت كلهـا بفصوص الذهب ، وكللت بأشجار القصوص الخضر ، ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج ، فتخطف الأبصار ، بســـاطع شعاعها وتحدث فى النفوس فتنة نعوذ بالله منها » •

ووصف حال المسلمين فى صقلية فقال : « ووصل هذه الأيام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وســـيدهم ، القائد أبو القاسم بن حمود ، المعروف بابن الحجر وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابرا عن كابر ، وقرلدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح ، مريد للخير ، محب فى أهله كثير الصنائع الأخروية ، ومن افتكاك الاسارى وبث الصدقات فى الغرباء ، والمنقطعين من الحجاج ــ الى مآثر جمة ، ومناقب كريمه ــ فارتجت هذه المدينة بوصله •• » •

غير أن ابن جبير أشار فى رحلته الى ظاهرة خطيرة عند أهل الجزيرة وهى أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجه ، أو تغضب المرأة على ابنها ، فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه الى التطارح فى الكنيسة فيتنصر ويتعمد •• فلا يجد الأب للابن سبيلا ولا الأم الى البنت سبيلا » •

هذا هو موجز رحلات ابن جبير . وغنى عن البيان أن هذه الرحلات قد أفسحت من تفكيره ، ووسعت مداركه ، وأكثرت تجاربه وظهر أثر ذلك واضحا جليا فيما سطره من أقوال أو أشعار ومن ذلك قوله :

عجبت للمرء فى دنياه تطعمه فى العيش والأجل المحتوم يقطعه
يمسى ويصبح فى عشواء يخبطها أعمى البصيرة والآمال تخدعه
يغتر بالدهر مسرورا بصحبته وقد تيقن أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لايفارقه وقد درى أنه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه وليس يشفق من دين يضيعه
وأسوأ الناس تدبيرا لعاقبة من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال ابن جبير أيضا :

أيها المستطيل بالبغى أقصر ربما طأطأ الزمان الرءوسا
وتذكر قول الاله تعالى ان قارون كان من قوم موسى

وقال ابن جبير كذلك :

الناس مثل ظروف حشوها صبر وفوق أفواهها شىء من العسل
تغر ذائقها حتى اذا كشفت له تبين ماتحويه من دخل

وقال فى الحكمة والأصحاب :

صبرت على غدر الزمان وحقده وشاب الى السم الزعاف بشهده
وجربت اخوان الزمان فلم أجد صديقا جميل الغيب فى حال لبده
وكم صاحب عاشرته وألفته فمادام لى يوما على حسن عهده
وكم غرنى تحسين ظنى به فلم يضىء لى على طول امتداحى لزنده

* * *

هذا وقد طبعت رحلة ابن جبير للمرة الأولى فى « ليدن » عام ١٨٥٢ مع مقدمة للمستشرق « وليم رايت » ثم أعيد طبعهـا فى لندن عام ١٩٠٧ بعد أن نقحها « دى غويه » وحقق المستشرق « أمارى » الجزء الخاص بصقليه وترجمه الى الفرنسية ونشره فى المجلة الآسيوية عام ١٨٤٠ ـ ١٨٤٦ ، وعلق على ترجمته الشيخ الطنطاوى ٠

ونشرت بالعربية فى أوائل هذا القرن ، ثم فى أوائل النصف الثانى منه (مكتبة مصر بالفجالة عام ١٩٥٥)

وتوفى ابن جبير فى الاسكندرية عام ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ٠

ابن حوقل

هو أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الموصلى ، أحد السائحين المشهورين فى الاسلام كان تاجرا فى الموصل ، وسافر من بغداد وطاف البلاد الاسلامية ووصفها ، كما وصف بلاد البربر وصفا جميلا خلابا ، وجال فى بلاد الأندلس ، ودخل جزيرة صقلية ، وجال فى العراق وفارس وغيرهما من البلاد ودامت رحلاته حوالى ثمانية وعشرين عاما ، وكان ذلك فى القرن الرابع للهجرة . وألف فى رحلاته كتابا جميلا يسمى « المسالك والممالك » ، وهو مثل كتاب « مسالك الممالك » للأصطخرى أو أو الكرخى صاحب هذا الكتاب وكتاب الأقاليم . بيد أن ابن حوقل أضاف على الاصطخرى فى وصفه . وقد ترجم كتاب ابن حوقل الى الانجليزية وطبع فى لندن عام ١٨٠٠ وترجم بعضه المختص بأفريقيا وطبع فى باريس عام ١٨٤٢ ، وطبع منه قسم ثالث فى باريس ١٨٤٥ .

ويصف هذا القسم مدينة بالرما عاصمة جزيرة صقلية . وقد نشره الأستاذ أمارى مع ترجمة فرنسية .

واقتصر ابن حوقل فى كتابه على وصف أكبر البلاد الاسلامية ، ولم يتعرض لغيرها الا قليلا واعتمد فيما ذكره فى كتابه المذكور

ما عاين وما حكى له ، غير مثبت ولا فاحص احيانا .. فوقع لذلك فى كثير من الأغلاط والأوهام .

وظهر فى كتاب ابن حوقل لون من التحيز للمسلمين على غيرهم من شعوب الأرض ، وكان يعود على الفرنج بالذم ، وقال مامعناه « وأما بلاد النصارى والحبشة ، فلا أتكلم عليها الا يسيرا لما أن تولعى بالحكمة والعدل والدين وانتظام الأحكام يأبى أن أثنى عليهم بشىء من ذلك ! »

وقد اتفق ابن حوقل مع « المقدسى » فى الاقتصار على وصف مملكة الاسلام . ويعترف المقدسى كذلك بأنه لم يتكلف وصف ممالك الكفار لأنه لم يدخلها ، كما يضيف قائلا فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » أنه لم يذكر الا مواضع المسلمين منها ، وكان عدم دخوله لها كافيا فى منعه من التعرض لوصفها ، لأنه كان يجعل المشاهدة ومعاينة مايريد الكلام عنه أول دعامة لكتابه .

لكن ابن حوقل يعود فيقول انه شاهد كل ماكتب عنه وعاينه .. الا الصحراء الغربية فيعترف بأنه لم يشاهد جميعها . وهذا القول يحتاج الى نظر . فهناك كثير من الأخطاء التى تردى فيها ابن حوقل وتدل على أنه لم يزر جميع المناطق التى تناولها بقلمه وأجرى عليها وصفه .

وجاء فى مقدمة كتاب ابن حوقل : « هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ، وذكر الاقاليم والبلدان ، على مر الدهور والأزمان ، وطبائع أهلها ، وخواص البلاد فى نفسها ، وذكر جباياتها وخراجاتها ، ومستغلاتها ، وذكر الأنهار الكبار ، واتصالها بشطوط البحار ، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار ، ومسافة مابين البلدان للسفارة والتجار ، مع ماينضاف الى ذلك من الحكايات والأخبار ، والنوادر والآثار .. تأليف أبى القسم

(هكذا) بن حوقل رحمه الله ، مختصر فى صور بلاد الاسلام ، وأخبارها بالكمال والتمام ، جمع الامام العالم أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى رحمه الله تعالى ، معول فيما جمعه على كتاب الامام العالم أبى القاسم محمد بن خرداذبه ، وقدامة بن جعفر الكاتب ، تغمدهم الله برحمته ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم • حسبنا الله ونعم الوكيل » •

ويؤخذ من مقدمة الكتاب أن الذى دفعه الى تأليفه شغفه بقراءة كتب المسالك منذ ريعان شبابه ، وأنه ترعرع فقرأ الكتب الجليلة المعروفة ، والتواليف الشريفة الموصوفة : فلم يقرأ فى المسالك كتابا مقنعا ، وما رأى فيها رسما متبعا ، فدعاه ذلك الى تأليف هذا الكتاب واستنطاقه فيه وجوها من القول والخطاب • وأعانه على ذلك تواصل السفر ، والشهوة لبلوغ الوطر ، وتواصل الشدائد على أهل المشرق والعدوان ، واستئناس سلاطينه بالجور بعد العدل والطغيان ، وكثرة الجوائح والنوائب وتعاقب الكلف والمصائب واختلال النعم ، وقحط الديم » •

وقد حاول ابن حوقل فى كتابه أن يرسم حدود الأقاليم المختلفة ، ويفصل كل اقليم عن الآخر وقد تكون هذه الحدود نوعا وشكلا وتضاريس : فبعضها جبال ، وبعضها صحارى ، وبعضها سهول • وأما مملكة الروم ، فان شرقيها بلاد الاسلام وغربيها وجنوبيها البحر المحيط ، وشماليها وجنوبيها البحر المحيط ، وشماليها حدود عمل الصين (لأنه ضم مابين الأتراك وبلد الروم من الصقالبة ، وسائر الأمم التى تلى الروم الى بلد الروم) • وأما مملكة الصين فان شماليها وشرقيها البحر المحيط ، وجنوبيها مملكة الاسلام والهند وغربيها أيضا البحر المحيط لأن يأجوج ومأجوج ومن اليهم الى البحر المحيط من هذه المملكة واما أرض الهند فان شرقيها بحر فارس ، وغربيها وجنوبيها بلاد خراسان ، وشماليها مملكة الصين •

وأما البحار فأشهرها عند ابن حوقل بحران وأعظمها بحر فارس ثم بحر الروم • وهما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط • وأفسحهما طولا وعرضا بحر فارس •

وروى ابن حوقل فى كتابه عمن سبقه من الجغرافيين ، فقال مثلا ان مملكة الصين – على مايزعم أبو اسحاق الفارسى وأبو اسحق ابراهيم بن التبكين حاجب صاحب خراسان – أربعة أشهر فى ثلاثة أشهر •• ويقصد بذلك أن المسافر يقطعها سفرا فى هذه المدة •

كما قال عن مملكة الاسلام أن طولها من حد فرغانة حتى يقطع خراسان والجبال والعراق وديار العرب الى سواحل اليمن ، فطولها نحو خمسة أشهر ، وعرضها من بلدة الروم حتى يقطع الشام والجزيرة والعراق وفارس وكردان الى أرض المنصورة على شط بحر فارس نحو أربعة أشهر ، كما أنها تضم كذلك ليبيا وفزان والمغرب العربى •

وقد أخذ ابن حوقل فى كتابه يفصل أقاليم الاسلام اقليما اقليما ، وصور ما يستحقه كل اقليم من الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث ، ووصف مايقع فى تضاعيفه من المدن وسائر مايحتاج الى علمه

واستهل ابن حوقل وصفه لديار العرب فى الحجاز ، لأن القبلة ومكة هناك وهى أم القرى وبلد العرب وأوطانهم التى يشركهم فى سكناها غيرهم

ويؤخذ من وصف ابن حوقل لمكة أنه ليس بها ماء جار الا شيء أجرى اليها من عين ، وليس لأهل مكة آبار يشرب منها الا زمزم ، ولا يمكن الادمان على شرب مائها ، وليس بجميع مكة شجر مثمر غير شجر البادية • واذا جزت الحرم فهناك عيون وآبار وحوائط

(أى بساتين) كثيرة وأودية ذات خضر ومزارع ونخيل • وثبير جبل منشرف يرى من منى والمزدلفة • وكانت الجاهلية لاتدفع من المزدلفة الا بعد طلوع الشمس اذا أشرقت على ثبير ، وبالمزدلفة المشعر الحرام ، وهو مصلى الأمام يصلى فيه المغرب والعشاء الآخرة والصبح • والحديبية بعضها من الحل وبعضها من الحرم ، وهو مكان صد المشركون فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن المسجد الحرام من أبعد الحل الى البيت • وليس هو فى طول الحرم ولا عرضه ، الا أنها فى زاوية للحرم •• فلذلك صار بينها وبين المسجد أكثر من يوم •

أما المدينة فقد وصفها ابن حوقل بأنها أقل من نصف مكة ، وهى فى حرة سبخة الأرض ، ولها نخيل كثيرة ، ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار ، يسقون بها العبيد ، وعليها سور ، والمسجد فى نحو وسطها وقبر النبى — صلى الله عليه وسلم — من المسجد فى شرقيه قريبا من القبلة قريبا من الجدار الشرقى فى بيت مرتفع بين سقفه وسقف المسجد فرجة ، ولا باب له ، وله زاويتان •• والمنبر الذى كان يخطب عليه — عليه الصلاة والسلام — قد غشى بمنبر آخر . والروضة امام المنبر بينه وبين القبر والمصلى الذى كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يصلى فيه الأعياد فى غربى المدينة داخل سورها •

ويلاحظ أن وصف ابن حوقل للمدينة لايختلف كثيرا عن وصف غيره من المؤرخين الذين زاروا هذه الأماكن • وليس لابن حوقل تجديد فى هذا الميدان ، بيد أنه أضفى ثقافته على وصفه ، واستخدم علمه فى التعليق على وصفه الجغرافى ومن ذلك قوله : « وأعذب ماء فى الناحية آبار العقيق » فانه لايلبث أن يروى بعد ذلك حديثا عن الرسول بأن غبار المدينة أمان من الجذام ، ومن أقام بها وجد فى ترابها وهوائها رائحة ليست فى « الارائيح » طيبا •

وقد أشار ابن حوقل كذلك الى بعض الثروات الاقتصادية فى الأماكن التى زارها ، ومن ذلك وجود اللؤلؤ فى الخليج الفارسى ، ووجود الذهب والزمرد وغير ذلك من المعادن بجوار البحر الأحمر وقد أثبت البحث العلمى الحديث صحة هذا القول ، وذهبت هناك بعثات استكشافية لهذا الغرض ، ورجع أكثر هذه البعثات بعد أن اكتشفت كثيرا من المعادن النفيسة . كما قال ابن حوقل فى الثروة المعدنية فى الأندلس .. وبالأندلس الزئبق والحديد والرصاص » وأضاف قائلا : « ومن الصوف قطع كأحسن مايكون الأرمنى المحفور الثمن ، الى حسن مايعمل بها من الأنماط . ولهم من الصوف والأصباغ فيه ، وفيما يعانون صبغه بدائع بحشائش (تختص) بالأندلس تصبغ بها اللبود المغربية المرتفعة الثمينة ، والحرير وما يؤثرونه من ألوان الخز والقز ، ويجلب منها الديباج ولم يساوهم فى أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الأرض . وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثينيه يقوم اللبد منها بالخمسين والستين دينارا ، غير أنه قد جعل عروضها خمسة وستة أشبار ، فهى فى محاسن الفرش . وهناك المشمع فيمنع المطر أن يصل الى لابسه .. »

فهذا كلام عن الثروة الاقتصادية فى الأندلس يلقى أضواء باهرة على هذه المنطقة ، بل يشير الى صناعات مختلفة نمت وترعرعت هناك ، ومنها صناعة الحرير والصباغة ، وعمل الفرش والمشمع وما اليه ، وصناعة الملابس . وكل هذه النواحى تفيد فى الناحية التجارية ، كما توضح عمل الأهالى .

والطريف أن ابن حوقل أشار فى كتابه عند وصوله الى مصر الى خصوبة تربتها ، ونضارة زروعها ، وكثرة خيراتها ، ثم قال : « بمصر بغال وحمير لايعرف فى شىء من بلدان الاسلام والكفر أسير منها ولا أحسن ولا أثمن ، غير أنها مخطفة الخلق ، غير عبلة

الأبدان ، ولا رطبة الجسوم • وقد تجلت الى بعض الأماكن فتتغير وتمتلىء أبدانها ، وهى الغاية فى سرعة السير وحسن المشى والوطأة ولهم من وراء أسوان حمير صغار فى مقدار الكباش الكبار ملمعة الجلود ، يشبه تلميعها جلود البقر وقد يكون منها الأصفر المدنر والأشهب المدنر ، فتكون فى غاية الحسن • »

فهنا يشير ابن حوقل الى الثروة الحيوانية فى مصر ، مما يفيد الباحث فى دراسته • كما أشار ابن حوقل كذلك الى مايصنع فى مدينة تنيس ودمياط من فاخر الثياب ، وربما بلغت الحلة من الثياب مائتى دينار اذا كان فيها ذهب ، وقد يبلغ ثمن مالا ذهب فيها مائة دينار أو أكثر •

أما الاسكندرية فقد قال ابن حوقل عنها انها مدينة على بحر الروم ، ورسومها بنية ، وآثار أهلها ظاهرة ، تنطق عن ملك وقدرة وتعرف عن تمكن فى البلاد ، وسمو ونصرة ، وتفصح عن عظة وعبرة ، كبيرة الحجارة ، جليلة العمارة • وبها من العمد العظام وأنواع الأحجار الرخام الذى لاتحمل القطعة منه الا بألوف ناس • واستشهد ابن حوقل فى وصفها ببيت من الشعر جاء فيه :

فلو سئلت عن أهلها لرأيتها مخبرة عن حالهم بالعظائم

ولها طرقات مفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون ، وفى أماكن متفرقة منها توجد عمد من الرخام تبدو ــ لصفاء صقلها وحسن ألوانها ــ كالزمرد الأخضر ، أو الجزع الأصفر والأحمر •

وعندما تعرض ابن حوقل لوصف منارة الاسكندرية قال ان جميع العامة والخاصة من أهل الدراية مجمعون على أن مؤسسها اخترعها لرصد الفلك ، وأدرك ما أدرك من علم الهيئة بها •

ولكن الشىء الذى يستحق الاعجاب حقا فى رحلة ابن حوقل وصفه لجزيرة صقلية ، فان الجهد الذى قام به هذا الجغرافى

العربى فى زيارة هذه الأماكن فى القرن الرابع الهجرى جهـــــد لايمكن اغفال فضله بحال من الأحوال ٠

وقد نقل ياقوت الحموى فى « معجم البلدان » عن ابن حوقل فى رسم صقلية أنها جزيرة على شكل مثلث متساوى الساقين ، زاويته الحادة من غربى الجزيرة ، وحددها ابن حوقل بأن طولها مسيرة سبعة أيام فى أربعة أيام والغالب عليها الجبال والقـــلاع والحصون ، وأكثر أرضها مسكونة مزروعة ، وليس بها مدينـــة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة « ببلرم » عاصمة صقلية ، وهى على نحر البحر ، وهى خمس حارات متجاورة غير متباينة ، وان كانت حدودها ظاهرة بينة ٠

وذكر ابن حوقل أن عليها سورا عظيما من حجارة شـــامخة منيعة ، يسكنها التجار ، وفيها مسجد الجامع الأكبر ، وكان بيعة للروم قبيل فتحها ، وفيه هيكل عظيم ٠ ويقول بعض الرواة أن حكيم اليونان أرسطوطاليس معلق فى خشبة فى هذا الهيكل الذى اتخذه المسلمون مسجدا ، وأن النصـارى كانت تعظـــم قبره وتستشفى به لما شاهدت اكبار اليونان له واعظامهم لشـــأنه ٠ وقيل أن السبب فى تعليقه بين السماء والأرض ماكان يلاقيـــه الناس عند الاستسقاء والاستشفاء ٠٠ مما يوجب الفزع الى الله تعالى ، والتقرب اليه عند الشدة وخوف الهلكة ٠

كما تضم صقلية بعض المساجد الأخرى ، كمسجد ابن سقلاب وبها كثير من الأسواق كسوق الزيائين بأجمعهـــم ، والدقاقين والصيارفة ، والصيادين ، والحدادين ، والطرازين ، والبزازين ، والصياقلة ، والسماكين ، والقصابين ، وباعة البقل ، وأصحاب الفاكهة والرياحين ، والجزارين والخبازين ، وطائفة من العطارين والاساكفة ، والدباغين ، والنجارين ، والخشابين ٠

وبمدينة بلرم وحدها ما يقرب من مائة حانوت للقصابين لبيع اللحوم ، وهذا يشهد على وفرة الثروة الحيوانية فى البلاد ، وكثرة الماشية والأغنام .

ويجاور القصابين القطانون والحلاجون ، بيد أن سوق القطن لم يعجب ابن حوقل كما أعجبه غيره من الأسواق التى طاف بها ،

وقد ثار ابن حوقل من بعض المناظر التى وقعت عليها عيناه فى الجزيرة ولم يستطع أن يكتم امتعاضه واستياءه ، اذ شاهد رباطات واجتماعات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفساق ، والمتمردين من الشيوخ والأحداث .

كما تعرض ابن حوقل لوصف الحالة الاجتماعية لسكان الجزيرة ، ونظام معيشتهم ، ووسائل طعامهم وشرابهم . وأشار الى ظاهرة انتشار المعلمين والكتاتيب فى الجزيرة ، بيد أن بعض هؤلاء المعلمين يحيد عن الصواب ، وينصرف عن الحق ــ وهذا أمر يستحق الرثاء . وفى هذا يقول ابن حوقل : « ومن أعظم الرزية ، وأشد البلية ، وأفظع النازلة ، أن جميع أهل صقلية ــ لصغر أحلامهم ، ونقص درايتهم وبعد أفهامهم ــ يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم ، وفقاؤهم ومحصولهم ، وأرباب فتاويهم وعدولهم ، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام ، وتعقد الأحكام ، وتنفذ الشهادات ، وهم الأدباء والخطباء »

ويروى أنه رأى وندا كان لاسحاق بن الماجلى المعلم القاضى يخطبهم نحو حولين : يجزم الأسماء مع الصلة ، ويجر الأفعال من أول خطبته الى آخرها . وخاطب أديبا كان من أهلها يسعى ويدعى الدراية بجميع الأحوال ، وقد نصب هذا الخطيب مالم يسم فاعله، أو رفع منصوبا ويظنه مفعولا به .. فقال له : أما سمعت الخطيب،

وماكان منه ، وذكر له خطأه وقد ذهب عنه اللفظ فقال : « كأنه والله ياسيدى كما تقول • غير أنا نحن لانأبه لمثل هذا »

وهذه القصة التى رواها ابن حوقل تدل على ان اهل هـــذه الجزيرة من الأدباء والخطباء والعلماء والمعلمين لم يكونوا يتمسكون بقواعد النحو والصرف ، بل كانوا يترخصون فى أسلوبهم ••• وهذه السمة لم تعجب ابن حوقل الجغرافى العربى •

ومن أرث مارآه بصقلية وأغثه ــ على حد تعبيره ــ خمســة معلمين فى مكتب واحد يعلمون فيه الصبيان شركاء متشاكسون على باب عين شفاء ، يرأسهم شيخ يعرف بالملطاط وهو من أقدم الناس على شهادة الزور !

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن أهل الجـــــزيرة لم يكونوا يتوخون فى المعلمين شروطا خاصة مما أفســــد النشء ، وأضر بسمعة الصبيان •

ووصف ابن حوقل بعد ذلك الشام والجزيرة والعراق ، وعرج على فلسطين والأردن ، ووصف بيت المقدس وصفا شائقا جميلا ، بيد أنه لايختلف عن غيره من الرحالة • أما الأردن فقد استرعته مدينتها الكبرى « طبرية » وهى على بحيرة عذبةالماء طولها اثنا عشر فرسخا فى عرض فرسخين أو ثلاثة ، وبها عيون جارية حارة • كما أعجبته فاكهة الأردن والأب والنخيل •• وروى أن بالأردن كان مسكن يعقوب النبى ــ عليه السلام ــ ، وجب يوسف على بعــد اثنى عشر ميلا من طبرية •

وغير خاف أن الحدود التى رسمها ابن‌حوقل للأردن وفلسطين والشام تختلف كل الاختلاف عن الحدود الحالية ، بل الحدود التى فرضتها السياسة بعد الحرب العالمية الأولى • فهو يعتبر مثــلا مدينة صور من الأردن ، وهى الآن واقعة فى منطقة لبنان •

وعندما وصف ابن حوقل الشام وقف وقفات طويلة عند مساجدها وآثارها • ومن الطريف أنه قال عن حمص : « ليس بها عقارب ولا حيات ، واذا دخلت الحية والعقرب اليها ماتت » • ووصف سككها وأسواقها بأنها مفروشة بالحجارة مبلطة ، وقد زاد اختلالها بعد دخول الروم اليها وانصراف سلطانها عنها •

كما وصف ابن حوقل دمشق وقنسرين وغيرهما من مدن الشام ، حتى اذا وصل الساحل ثم عبر البحر وصف جزيرةمالطة وكريت وقبرص • ومن الأشياء التى ذكرها عن مالطة أن الحمير الوحشية تسرح فيها ، وبها غنم كثير ، وبها من العسل مايجذب اليها كثيرا من الأقوام • أما قبرص فان بها أنواعا مختلفة من الحرير والكتان ، وبها من القمح والشعير والحبوب والخصب مالا يوصف كثرة وروى ابن حوقل فى كتابه طرفا من تاريخ هذه الجزر وموقف المسلمين منها ، مما يفيد دارس التاريخ الى جانب المعلومات الخاصة النافعة لدارس الجغرافيا •

وتناول ابن حوقل أيضا أرض الجزيرة التى بين دجلة والفرات ــ أو أرض بيعة ومضر ــ بالوصف والتعليق فقال : « والجزيرة اقليم جليل بنفسه ، شريف كان بسكانه وأهله ، رفه بخصبه كثير الجبايات لسلطانه » • وكان من أجل بقاع الجزيرة وأحسن مدنها وأكثرها فواكه ومياها ، ومتنزهات وخضرة ونضرة وأوفرها غلات من الحبوب والكروم والقمح والشعير: مدينة نصيبين •• فوقف عندها ابن حوقل ووضح حدودها ، وجاس خلالها • الا أنه أعلن امتعاضه ونفوره من عقاربها ، فقال : « وبنصيبين عقارب قاتلة موصوفة مشهورة ، وبالغرب منها جبل ماردين ، ومن قرار الأرض الى ذروته نحو فرسخين ، وعليه قلعة لحمدان بن الحسن بن عبد الله بن حمدان ، تعرف بالباز الأشهب ، لايستطاع فتحها عنوة ، وبنواحيها حيات موصوفة تفوق الحيات فى سرعة القتل ومضاء المنية » •

ولعل قدوم هذه الحيات الى نصيبين يرجع الى الجبال الواقعة بقربها ، وهذه الجبال لم تكن شرا كلها انما ضمت « جوهر الزجاج الجيد ، ويحمل منه الى سائر بلدان الجزيرة والعراق وبلد الروم ، فيفضل على ماسواه بجوهرية فيه ٠»

وكانت الموصل فى الوقت الذى حل بها ابن حوقل مسكن سلطان الجزيرة ودواوينها ومجتبى أموالها ٠ وللموصل أضعاف أعمال نصيبين ٠ فى قسمة الأعمال ، وكثرة الضياع ، وعظم المحل وغزارة السكان ، وأهل الأسواق ٠٠ اذ كانت أسواقها واسعة ، وكان الناس يؤمونها من كل فج عميق ٠ وهى مدينة أبنيتها بالجص والحجارة ، كبيرة غناء وأهلها عرب ، وأكثرهم يتنقلون بينها وبين البصرة والكوفة ٠ وبها كثير من الحمامات والفنادق والساحات والعمارات ٠ كما أن بها بعض الفواكه اليابسة والرطبة ٠ وتنتشر فى أنحائها الطواحين التى تعرف « بالعروب » ــ وهى من الخشب والحديد ، وربما دخل فيها شيء من الساج ــ وهى قائمة فى وسط ماء شديد الجريان ، وموثقة بالسلاسل الحديدية وفى كل عربة منها أربعة أحجار ، ويطحن كل حجرين فى اليوم والليلة خمسين حملا ٠

ووصف ابن حوقل أيضا مافى الجزيرة من برار ومفاوز فسيحة ٠

ثم انتقل الى العراق ٠ وهو على حد تعبيره « أعظم أقاليم الأرض منزلة ، وأجلها صفة ، وأغزرها جباية ، وأكثرها دخلا وأجملها أهلا ، وأكثرها أموالا ، وأحسنها محاسن ، وأفخرها صنائع ، وأهله أوفرهم عقولا واوسعهم علوما ، وأفسحهم فطنه فى سالف الزمان والأمم الخالية » ٠

وتعرض ابن حوقل بعد ذلك الى وصف مدن العراق ، فوقف عند البصرة والكوفة ، ثم بلغ مدينة السلام أو بغـــداد • وروى لنا طرفا من تاريخ هذه المدن :

فالبصرة لم تكن فى أيام العجم ولما اختطها المسلمون أيام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ومصرها عتبة بن غـــزوان ، ويحيط بغربيها البادية مفوسة ، وبشرقيها مياه الأنهار مفترشة •

والكوفة من خطط قبائل العرب ، وبناؤها كبنـــاء البصرة ، ومصرها سعد بن أبى وقاص •

وبغداد ابتناها أبو جعفر المنصور فى الجانب الغربى من دجلة وجعل حواليها قطائع لحاشيته ، ومواليه وأتباعه • ثم عمـــرت وتزايدت ، فلما ملكها المهدى جعل معسكره من الجـانب الشرقى فسمى عسكر المهدى ، وتزايد الناس والبنيان ، وكثرت عمارتهم ، وانتقل اسم الخلافة الى الجانب الشرقى •

أما مدينة « سر من رأى » فقد استحدثها أبو اسحق المعتصم ابن الرشيد ، وطولها سبعة فراسخ على شرق دجلة •

وهكذا كان ابن حوقل يلجأ بين الحين والحين الى اســتخدام ثقافته التاريخية فى وصف هذه البلدان • والملاحظ أنه كان غزير المادة بالنسبة الى وصف أرض العراق والجزيرة ، ولعل ذلك يرجع الى أنه من الموصل ثم رحل الى بغداد • والملاحظ كذلك أنه يتحيز بعض الشىء الى قومه كما يتحيز لخيرات بلاده كما أنه كان يكثر من استخدام « أفعل التفضيل » فى وصفه واستخدام « أفعـــل التفضيل » على هذه الصورة لايجوز لمثل ابن حوقل الذى لم تمكنه الظروف من ارتياد جميع مناطق العالم • فاقليم العراق أعظـــم أقاليم الأرض منزلة وحلوان مدينة ليس بالعـــراق ـ بعد البصرة والكوفة وواسط ـ أعمر منها ولا أكثر خصبا ، وجل ثمارهـــا التين •

والملاحظ كذلك أن ابن حوقل لم يهتم فى كتـــابه الجغرافى بالمناخ ، اللهم الا اشارات خفيفة تظهر بين ثنايا الكتا ب، ومن ذلك قوله ان الثلج ربما يسقط على بعض الجبال فى العراق · أما أعلى الجبل فالثلج يسقط به دائما · والموصل صحيحة التربة والهواء ، ومدينة الكوفة قريبة الأوصاف من البصرة ، بيد أن هواءها أصح وماءها أعذب ·· وما الى ذلك من خطرات تتراءى فى تضـــاعيف الكلام ·

ولكننا اذا قدرنا أن ابن حوقل يكتب مؤلفاته فى القـــرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) قبل أن تتقدم الجغرافيا فى العصر الحديث على يد « اسكندر همبولت » (١٧٦٩ـ١٨٥٩) و « كارل رتر » (١٧٧٩ـ١٨٥٩) ، ويظهر كثير من الاكتشافات الجديدة ، ويبدأ الجغرافيون فى التحليل والتعليل والبحث عن الأسباب بدلا من الاكتفاء بقبول الحقائق وسردها على عواهنها دون تعمق ··· أدركنا مدى جهد ابن حوقل فى هذا الميدان ·

هذا وقد ظهرت عدة طبعات من كتاب « المسالك والممالك ، والمفاوز والمهالك » لابن حوقل فى أوربا ، كما طبع فى مطبعة بريل بمدينة ليدن عام ١٩٣٨ كتاب صورة الأرض طبعة ثانية وهويحتوى على نص النسخة المرقومة ٣٣٤٦ المحفوظة فى خزانة السراى العتيق فى استنبول ، وكذلك على صور هذه النسخة · وقد استتم بمقابلة نص الطبعة الأولى وبعض المصادر الأخرى ، وظهرت طبعة أخرى من كتاب المسالك والممالك فى بون ، وترجمه أوزيلى الى الانجليزية ونشره فى لندن ، وسماه « الجغرافية الشرقيةلابن حوقل » وطبعت هذه الترجمة فى لندن عام ١٨٠٠ ، وتوجد فى مكتبة البودليـــان باكسفورد نسخة خطية من هذا الكتا ب، كما توجد نسخة أخرى فى مكتبة باريس ·

وقد استشهد ياقوت الحموى ـــ فى كتابه « معجم البلدان » بأقوال كثيرة لابن حوقل ·



مطابع شركة الاعلانات الشرقية





يقدمها :

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الثمن ٥